
رواية
مكتبة
الأدب
المغربي
قبور في الماء
برهيس
محمد زفزاف

قبور في الماء

روايـــة



للنشر والتوزيع

2013

عنوان الكتاب : **الأفعى والبحر (رواية)**

اسم الكاتب : **محمد زفزاف**

المدير المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 012/3529628

6 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2013

رقم الإيداع : 2012/21889

الترقيم الدولي : 978-977-499-074-8

قبور في الماء

رواية

محمد زفزاف



للنشر والتوزيع

2013

انزلقت قدم علال فوق التراب الجاف، ثم أوقفتها نباتات متمكنة من الأرض، وتنفس بملء صدره. وقال في ضيق وألم للعيساوي:

- غير ممكن. عشرة أيام. هذا مستحيل.

ظلّ العيساوي صامتًا. ونظر بعينين يملأهما القهر إلى البحر المنبسط باستسلام خادع ثم قال:

- قدرة الله.

وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته التي أوشكت على الانقراض بين أصابعه. وقال من خلال أنفه الأفطس المثبت بإحكام في صفحة وجهه:

– ليس من عادة المراكب أن تغيب لمدة مثل هذه. وإذا غابت وقتًا طويلًا كهذا معناه أنها ضاعت.

ظلّ البحر مستسلمًا على حاشية الأرض الجافة. وبقي الرجلان لحظات صامتين لا يفكران. كان هناك جمود باطني. أعقبه شلل في الذهن والجسد. ولم يكن هناك سوى دخان يرتفع من فمين ذوي شفاه غليظة مشققة وأسنان كأسياخ الحديد لم تنظف منذ مدة طويلة. لم يكن علال يتألم بالقدر الذي كان يتألم به صديقه. ففي القرية بدأت نوبات البكاء تسري وتمتد. النساء يبكين والأطفال يهزجون بالبكاء في اللعب. والرجال يتألمون في صمت. شعر العيساوي الآن بتشنج عصبي في بطنه ووجع في رأسه. فالكارثة إذا وقعت لا شك أنها ستودي بعدد لا بأس به من سكان القرية. ولا شك أن أمه الضعيفة القلب ستموت من جراء بكائها وحزنها على أخيه. وشعر علال أن صديقه العيساوي متألم وأن ألمه بلا حدود ولا نهاية. ولم يكن هو الآخر بأقل ألمًا منه، ولكنه كان يخفي ما يحسه. وكان يدّعي ظاهريًّا شيئًا آخر غير الذي يتمكن منه ويرديه. ولقد تخيل أن البحر مقبرة رهيبة. وأن هذا الخضم الهائل لا يتغذى سوى من جثث آدمية. وجعل ينظر بعينين ثابتتين إلى الماء الذي يبدو منبسطًا وادعًا متمسكًا بالأرض.

وقال العيساوي:

- هل صادف أن غاب مركب لمدة مثل هذه؟

قال علال:

- ألا تذكر؟ مركب دحمان. ألم تأتنا أخبار غرقه إلا بعد أربعة أشهر.

حدّق العيساوي في البعيد. كان في عينيه نهم بشري كبير، ورغبة كبيرة في اكتشاف مجهول رهيب. وظلّ يحدق، وتجمعت كل إحساساته في أنفه الملصق على صفحة وجهه ثم قال:

- أذكر ذلك. كانوا خمسة عشر ولم ينج منهم سوى واحد. أذكر هذا. ظلّ يسبح لمدة يومين إلى أن وجد نفسه في بقعة غريبة. ومشى مدة قبل أن يبلغ المناطق الآهلة.

استمع علال إلى صديقه بانتباه. وبدا كما لو كان يسمع القصة لأول مرة. وضغط يده على وركه، وأخذ يحك أسفل بطنه. ثم اجتذب سيجارة وأشعلها وظلّ صامتًا كالبحر. وكانت الأرض جافة تحت قدميه تلين وتتحيل إلى طراوة، لذلك فقد نظر تحت قدميه، والتفت ببطء إلى الخلف، ونظر في مرتفع عال وأشجار متشابكة في تضامن. أشجار لم تنبت ورودًا قط ولم تعط ثمارًا قط. أشجار تتغذى من ملوحة البحر، ومن بجفاف الأرض، ومن هواء مالح ضبابي. أخذ ينظر. ثم اعتدل في كتلة الفضاء المضغوط. وقال للعيساوي:

- غير معقول. عشرة أرواح تذهب هكذا بلا مقابل.

نظر العيساوي في وجه صديقه:

- غير معقول أن تذهب أرواح حتى بالمقابل. إن أمي تنتظر أخي وأنا أنتظر أخي. وأنت تنتظر ابن عمك.

انحنى علال إلى الأرض وأمسك بعود ملقى فوق الصفحة الجافة للأرض. ونظر إليه العيساوي فاكتشف - كما لو كان ذلك لأول مرة - أن سروال صديقه مرقع وقذر. ونظر في سرواله هو. كان أيضًا مرقعًا وقذرًا. بدأ علال يتلهى بمضغ العود وتكسيره بأسنانه القذرة التي لوثها الكيف وذهب ببعض حواشيها. ثم أخذ ينظر في صمت إلى طفل يدس رجليه في ماء البحر على بُعد أمتار عديدة. وقال لصديقه:

- من يكون ذلك الطفل؟

قال الآخر بلا مبالاة:

- لا أدري. يمكن أن يكون أبوه خلف الأشجار.

عم الصمت مرة أخرى. اشتدت ملوحة الهواء وكثافته. شعر العيساوي بصعوبة في التنفس. خفقت لذلك رئتاه. واضطر لأن يسعل وهو يرقب الطفل الذي يدس قدميه في ماء البحر، ويتقدم شيئًا فشيئًا كمن يريد أن يسبح وعاقته برودة الماء عن ذلك، وقال للعيساوي:

- لا بدّ أن النجدة ستدركهم ولا بدّ أن يعودوا.

شعر أن صديقه قد كفّ عن مضغ العود. ألقى العود أرضًا وارتمى فوق التراب الجاف. وتمدد فوقه. تأمل الماء المترامي على بُعد أقدام. فعل العيساوي الشيء نفسه. ظلّا يحلقان في أفق بعيد. كان الطفل قد تراجع عن قراره. ثم أخذ يمشي بعيدًا، حتى اختفى نهائيًا في الغابة. ولم يعر الرجلان للمسألة أدنى اهتمام بل ظلا يحدقان في الأرض الجافة تارة، وفي الماء المستسلم تارة أخرى. ولم يكن أحدهما، الآن، يشعر بوجود الآخر. كان علال يشعر أنه قد بدأ ينام تحت قيظ الشمس، وأن الحرارة المنبعثة المتدفقة من فوق كانت تردها سحب كثيفة من الضباب. استرخى وشعر باللطف مهيمنًا على جسده وعلى حجم رأسه المشعث الشعر. أدرك العيساوي أن صديقه يكاد ينام فنبهه إلى نقطة سوداء في البحر.

- انظر، باخرة.

- نعم باخرة. هل تعتقد أنها مركب صيد؟

- كنت أعتقد ذلك.

- لا أعتقد أنهم سيرجعون.

- لا تقل هذا. أخي هناك. إذا سمعتك أمي فإنها تموت.

- لم أقل شيئًا.

أخذ العيساوي ينظر في ثياب صديقه المهلهلة القذرة. وحوّل عينيه إلى ثيابه هو. كان يشعر أن الجو قد بدأ يزداد حرارة. بدأت أصابع قدميه تنعقد وتسترخي في عصبية والبحر يمتد على بُعد أقدام، وخلف البحر أفق مجهول. وكان يُحوّل عينيه إلى الأشجار الكثيفة القصيرة القامة التي تزهر ولم تثمر يومًا، ولكنها دائمًا خضراء. ومع ذلك فالمواشي لا تأكلها ولا تتغذى من أوراقها. إنها نباتات مُرَّة تصيب بالوجع والاحتراق في المعدة واللسان. في نهاية الموسم كانت تموت أغلب الأغنام. لذلك فقد تخلى الجميع عن كسب الماشية. وأصبح العياوي اليوم، بعد أن كان راعيًا، شخصًا بلا هوية ولا هدف. وكان يأمل ذات يوم أن يصبح صيادًا، تأخذه المراكب بعيدًا. كان يتقن السباحة وقيل له إن ذلك ليس كافيًا لكي يصبح صيادًا ماهرًا. فالأسماك الكبيرة والدرافيل تتطلب قدرة خارقة غير القدرة على السباحة. لذلك فقد ظلّ ينتظر أن يأتي يوم يفتح فيه الله عليه. ونظر في الماء المستسلم الأزرق. وقال لعلال:

- هل تتوقع أن يجيء العياشي هذا المساء؟

ظلّ الآخر صامتًا. لكنه أجاب فيما بعد:

- وماذا تعتقد؟ إنه سوف يجيء لكي يطمئن على مركبه. فإذا ضاع فسيكون ثالث مركب يضيع له.

- أرجوك. لا تقل ضاع. ما نحن على فألك.

وجعل علال ينظر إلى أنف صديقه المثبت على صفحة وجهه. وظلّ منخاراه ينقبضان ويرتخيان كالرابوز الجلدي. وطبيعي أن الهواء كان يجد صعوبة في اختراق منخاريه، والانطلاق إلى الرئتين اللتين أثّر عليهما التدخين المستمر للكيف.

- إن العياشي رجل غني. وهو ليس في حاجة إلى مركب. وهو يستطيع أن يعيش سواء أضاع المركب أو لم يُضِعهُ.

- ولكننا نحن، إذا ضاع شخص منا فقد ضاع كل شيء. إن الواحد منا أثمن من مركب.

- هل تعتقد ذلك؟

- ولم لا؟

بدأ علال ينبش بأصابع قدميه التربة الجافة. وسمع حفيف الماء. فنظر إلى تلك الانحناءات البيضاء بين الأرض والبحر. وأخذ يتأمل بعض الصدفات الملفوظة عبر إهمال الماء لها. كانت فارغة ولامعة تحت وهج الشمس. وتخيل أنها في ذات يوم كانت تحوي حيوانًا طريًّا فمات وانساب إلى قعر البحر، ودفعت الأمواج هذه الصدفات إلى هنا فبدأت تلمع وعكست الضوء.

أخذ علال يمعن النظر عند حدود ركبتيه اللتين كانت إحداهما تخرج سمراء متشققة متسخة من فتحة في السروال. وظلّ ينظر إلى ركبته القوية وقد انطبعت فوقها كدمات من جراء السقوط والاصطدام الكثير بالأرض الصلبة. وقال للعيساوي:

- يمكن أن العياشي سيغير المهنة.

- لماذا؟ لقد أثرى من الصيد.

- صحيح. ولكن خسارته أصبحت لا تقدر.

- من قال لك ذلك؟ من الخاسر نحن أم هو؟

صمت علال. حدّق بعيدًا. ثم حوّل عينيه إلى الصدفات اللامعة تحت وهج الشمس.. نظر في نقطة بعيدة في البحر. تخيل المركب عائدًا، والرجال الأشداء يغنون فوقه، وينشدون بسرور عارم مبتهجين بالعودة وبالتغلب على الموت. ثم قال من خلال هذا التصور:

- في كلتا الحالتين نحن الخاسرون.

انتفض العيساوى فجأة. أعطى صدره للبحر، حيث كانت هناك رياح قادمة بلطف وذات ملوحة. استنشقها بجمع صدره. حكّ جنبه مدة طويلة. وقال لصديقه:

- إن القمل يكاد يقتلني.

- لماذا لا تفلي ثيابك؟

- ليس لدي ما أضعه إذا أزلتها.

- أنت كسول فقط. الشمس حارة. يمكنك أن تغادر المكان وتتعرى ثم تفليها.

صمت العيساوي. ثم أخذ من جيبه سيجارة أخيرة، أشعلها ثم أخذ يدخن وهو يقول:

- سوف نمضي. لن نظل هنا طول الوقت. ربما جدّ عندهم جديد.

- أي جديد؟ حك جنبك واسكت.

- سيأتي العياشي. ربما عنده الخبر اليقين.

- إن المركب ضاع. ألا تثق بي؟

- لماذا تصرّ على ذلك؟ أنت متشائم.

- لست متشائمًا ولكنها التجربة. كل سنة يذهب مركب في قلب الماء.

أخذ العيساوي ينظر إلى الماء. غير ممكن أن يذهب مركب كل سنة. كان العيساوي يعرف تمام المعرفة أن ذلك شيء ممكن لكنه ينكره.

مضى علال بخطى متثاقلة فوق التراب الجاف. اختفى خلف الأشجار الكثيفة التي لم تزهر ولم تثمر يومًا. وظلّ العيساوي واقفًا في مكانه، بعد أن كان قد اقترح العودة إلى المهدية، حيث الأطفال والنساء متجمعون باستمرار، وفي عيونهم آلام لا حدود لها. مضى يتبع العيساوي وقد أطرق رأسه إلى أسفل. وعلى قفاه بدأت الشمس تنتشر. شعر بوخزها وأخذ يحك ظهره وقفاه. شعر بالحرارة شديدة وقوية. وازداد أنف العيساوي انتفاخًا كما اتسعت صفحة وجهه. شعر أن أحجارًا صغيرة تخزه في بطن قدميه. وتساءل ما إذا كان علال يشعر بنفس الشيء. إن قدميه غليظتان ومتحجرتان فهو لم يعد في حاجة إلى وضع حذاء. لأن قدميه اكتسبتا متانة وصلابة.

كان علال الآن قد اختفى بين الأشجار الكثيفة. وظلّ العيساوي ينصت إلى أصوات منبعثة من بين الغصون المتماسكة والمتشعبة حواليه. كانت هناك خشخشات مستمرة ترتفع وتنخفض ثم تمّحي. أرهف السمع فأتته كلمات من خلال كثافة النباتات الخضراء. ولم يميز الصوت المتحدث لذلك استمر يدوس الجذوع والتراب بقدميه الحافيتين. ثم أمسك نبات شوكي بسرواله المرقع، فأوقفه لحظة. وعندما خرج إلى الطريق التي غطتها الأتربة رأى علال فلم يناد عليه. لكنه التحق به للتو. ثم قال له:

- لا شك أنهم يبكون الآن.

قال العيساوي:

- ولم لا؟ هم الذين يجب أن يبكوا. إن أمي المسكينة ستموت من فرط الألم.

- بل القرية كلها ستموت.

ظلا يمشيان فوق الأرض المبلطة التي غلفتها الأتربة الحمراء. ومرقت سيارة صغيرة فأبعدتهما إلى حافة الطريق. ثم اصطدم علال بصديقه وهو يقول:

- أمك عجوز، ستموت.

- إن البحر ذهب بأسرتها كلها. لقد فهمت لماذا كانت تعارض فكرة أن أذهب إلى البحر.

التفت العيساوي إلى الخلف، وبدت له الطريق ملتوية كحية رقطاء غليظة. وكانت الأشجار الكثيفة التي تحفّ الطريق من الجانبين تخفيه في تلك الآونة. شعر أن منظرها رهيب أكثر من منظر البحر الغادر. وقد أعلن ذلك لعلال. أجاب هذا الأخير:

- هذه الأشجار أيضًا أخفت كثيرًا من الجرائم. منذ شهرين فقط عثروا على جثتين واعتقدوا أن البحر نفظهما، ولكنهما ماتا مخنوقين.

قال العيسوي:

- إن هؤلاء الذين يجيئون من المدينة شرسون. ثم دقّ الأرض بقدميه الحافيتين وأضاف:

- سنجدهم متجمعين كالمعتاد. وسيسألون أيضًا هل رأينا المركب.

- نقول لهم: رأينا باخرة ولم نرَ مركبًا.

- أو ربما يكون العياشي قد أتاهم بالأخبار.

- هل تعتقد أنه إذا غرق المركب سيجيء ويعلن ذلك؟

- لم لا؟

- مستحيل. إنه لا يدفع واجب التأمين.

- يستطيع أن يدفع الدية.

- سوف يكون ذلك أحسن.

- لا يجب أن نتحدث هكذا عن أناس ضاعوا. إن الدية لا تفيد شيئًا.

- ومن قال إنهم ضاعوا؟ نحن نتحدث فقط. يجب ألا نأمل في ذلك.

وعندما انحرفا، صعدا المرتفع. وبدأ علال يشعر بإرهاق عنيف وهو يتسلق الطريق الترابي إلى القمة. وقال للعيساوي إنه يشعر بتعب لا حد له.

كان البناء القديم المهدم يبدو من جهة اليمين حزينًا. ولمحا البحر. وكان بينهما وبين البحر أشجار كثيفة متشابكة تقع فيها الجرائم. ثم بدت لهما منارة المسجد. وكان عليهما أن يمشيا مسافة خمسمائة متر لكي تظهر لهما الأكواخ. ثم سمعا أصواتًا ولغطًا. فتوقف العيساوي وأرهف السمع. وقال لعلال:

- لا بد أنهم هنا.

- صحيح يمكن أنهم متجمعون هناك.

- يمكن أيضًا أنهم يبكون ويعولون.

اندفعا في صعودهما إلى القمة. وفجأة رأى العيساوي حمودة. ثم بعيدًا قرب الأكواخ رآهم متجمعين وقد استلقى بعضهم على الأرض. ورأى أيدي ترتفع في الهواء وترسم خطوطًا ومنعرجات. ولكنه لم يكن يسمع ما يقولونه.

قال حمودة:

- هل رأيتما المركب؟

قال العيساوي:

- رأينا باخرة، ولكننا لم نر المركب. هل عاد العياشي؟

- لا لم يعد. قيل سيجيء بعد ساعتين. ما يزال يستقي الأخبار.

- يتسقط الأخبار في المدينة. هذا غريب. إن المركب لم يغرق في المدينة.

- إنه يكاد ينفجر من الألم. وقيل إن زوجته الحامل تكاد تجهض.

قال العيساوي:

- فلتجهض. إن له سيارات وفيلات في المدينة. ويرتدي كل يوم أثوابًا جميلة.

- لا تقل هذا. إذا أجهضت فسوف تموت.

- نحن أيضًا مات أحباؤنا. أين المهديون؟ كلهم ماتوا. لقد ذهبت بهم مراكب العياشي ودحمان. لماذا لا يشتريان مراكب جديدة. إنهما يريدان الربح فقط.

صمت الثلاثة. كانوا يمشون في إطراق نحو الجماعة. ولم يكن أحد قد انتبه إلى وجودهم بعد. وعندما التفت العيساوي إلى الخلف رأى البحر منبسطًا أزرق، بعيدًا في الخلف تحت

المرتفع. شعر أن الأرض صلبة تحت قدميه الحافيتين. استرخى كلية في وضعه. وأحسّ أن يديه زائدتان عن جسده، وأحسّ أنه لا حاجة له بهما الآن. كان يشعر بشلل غريب يسري فيهما. وحاول أن يحركهما، لكنهما كانتا لا تستجيبان له، لأنهما كانتا ثقيلتين فاقدتي الإحساس. تبع حمودة وعلال اللذين أصبحا وسط الجماعة. ازداد أنفه انتفاخًا، واتسعت صفحة وجهه الأسمر القذر. ثم انفرجت شفتاه عن أسنان متسخة كأسياخ الحديد، متراصة بلا نظام. وتثاءب. وحمل يده إلى وجهه. مسح بظهر كفه شفتيه الغليظتين.. ظهرت له أمه وهي ممسكة بعلال. كانت متشبثة به وتسأله بكلمات لم يكن في إمكان العيساوي أن يسمعها. وعندما رأته هرعت إليه:

- أين أخواك؟

- لم نر المركب. رأينا باخرة. كانت تتجه نحو الجنوب.

- آه يا وليدي! العياشي لم يعد وأخوك مات.

- لا تقولي هذا يا أمي. لا تكوني متشائمة.

ثم تجمع حول العيساوي كثير من النساء والأولاد. فقال لهم جميعًا:

- لم نر المركب. سوف ننتظر حتى يعود العياشي ويقول لنا.

قالت امرأة:

- غير ممكن. عشرة أيام كلها. وماذا يأكلون؟ إن الجوع وحده يكون قد قتلهم.

- سوف يشربون القهوة ويأكلون السمك. لقد أخذوا معهم كمية وافرة من القهوة. كان قد اشتراها الرايس وكأنه كان يتنبأ بهذه الحادثة.

قالت حدوم:

- وهل القهوة مثل الخبز؟

ثم جرّت طفلها الصغير القذر من يده. وانسحبت لأن أحدًا لم ينتبه لها. ومضت وحيدة وقد لفّت الحايك حول جسمها السمين. وكانت قدماها الحافيتان تدكّان الأرض بقوة وألم. قال العيساوي:

- إن الإنسان لا يموت جوعًا إلا إذا مضى على ذلك أربعون يومًا.

قالت الحاجة:

- غير صحيح. يقال ذلك عن الجمل. أما الإنسان فيموت بعد أربعة أيام.

انضم إلى المجموعة أربعة رجال. كان العجوز عزوز

المقوّس الظهر يدب كالسلحفاة. وكان يحكي للثلاثة الآخرين قصصًا مماثلة عن غرق المركب. كـان يهـزّ عـصاه موضـحًا. لم يكن الثلاثة يستمعون له. وعنـدما رأوا عـلال توجهـوا إليـه، الواحد تلو الآخر. وتبعهم عزوز الذي قال على الفور:

- هل عاد العياشي؟ ألم تريا المركب؟

- لا. لكن العياشي سيعود بعد قليـل. وإذا سـمع بغـرق المركب فإنه لن يعود.

- لماذا؟

- لكي لا يدفع التأمين.

وقال الثلاثة بصوت واحد:

- سيدفع الدية.

ثم صمتوا كما لو كانوا قد ارتكبوا خطأ في حق الأموات.

قال علال:

- الأموات لا يُفدون. الإنسان أكبر من الدية.

قال عزوز:

- صحيح. ولكن إذا وقع مقدور..

- إنك تقول هذا لأنـه لـيس لـك في المركـب أحـد مـن عائلتك.

- عائلتي؟ ألست مهدويًّا؟

كان بلعربي ينظر إلى كل هذا. لم يرد أن يتدخل. كان مُطرقًا وشعور من الألم يحطم نفسه. كان الآخران يستمعان وعلى وجهيهما علامات استفهام وغموض. فالحسن ذهب أخوه مع الصيادين والحسناوي كذلك. ولا شك أن الموت قد ألجم فمه فلم يستطع الحديث. ولم يحاول أن يدافع عن نفسه أمام هذا الشيء الغامض الذي يقع.

ولكنه قال بعد صمت رهيب:

- لكن البحر كان هادئًا طيلة الأيام العشرة الماضية.

قال علال:

- قدرة الله ومشيئته.

قال عزوز:

- فهو وحده الذي يهب الموت والحياة.

ثم لوّح بعصاه وانسحب قليلًا إلى الخلف. وعاد إلى الاتكاء على العصا. نظرت فيه الجماعة ولم يحاول أحدهم أن يعقّب على ما بدر منه. لكن بلعربي خرج من صمته الرهيب:

- يمكن أن العياشي قد وصل الآن.

ثم نادى على طفل صغير وقال له:

- اذهب إلى الحافة وانظر هناك هل ترى سيارة العياشي؟

جرى الطفل الصغير وتبعه آخرون، كانوا قذرين ومتسخين وقد غلّف المخاط أوجههم فأصبحت سوداء. وعندما اختفوا وانحدروا نحو المنحنى انسحب بلعربي وانضم إلى جماعة من النساء. كان العيساوي وسطهن يتكلم بصوته الأجش. ثم تبعه عزوز بينما ظلّ الحسن وعلال واجمين. جلس الحسن وفعل مثله علال. كان التراب حارًّا وجافًّا. وجعلت قدما علال تتوغلان في رخاوته. فتح فمه ذا الأسياخ الحديدية وتثاءب. أخذا يتكلمان عن مصير الصيادين الضحايا برثاء أليم. كانت النساء يرفعن أصواتهن المنتحبة دفعة واحدة. ولم تكن سوى واحدة تستطيع الكلام هي عيوشة: عجوز لا أبناء لها. زوجها له خبرة بالبحر ولا قوة له. كانت صامتة ووجهها أزرق وألم خانق في عينيها. أمس كانت قد قالت لعزوز في نغمة مهزومة:

- هل تصدق يا عزوز أني سأعيش بعد موته؟

صمت هو، ومدّ يده لعصاه التي كانت موضوعة إلى جانبه. ثم قال في نهاية الأمر:

- ولكنك ستأخذين ديته.

- لا تقل هذا. ثلاثون سنة ونحن متزوجان.

- أعرف ذلك. ولكن إذا حلّ قدر فلا مرد له.

بكت عيوشة بدموع أم فقدت أبناءها كلهم في حرب خاسرة. ظلّت ذاك المساء غريبة الحركة، غريبة التنفس، غريبة النظرات، غريبة الإنصات والكلام. وهي هنا، في اليوم العاشر لا تتكلم. كانت تستمع للنساء وهن يتحدثن بصوت مرتفع مقترحات وباكيات. وعندما رأت جماعة من الرجال وقد جلسوا فوق التراب الجاف، جاءتها رغبة في أن تفعل مثلهم. لأن جسدها الضئيل كان لا يقوى على الوقوف. ثم انفصلت كقطعة من كتلة.

عيوشة، فوق تراب جاف، ولا يصلح للحرث، انفصلت ورفعت ثيابها وبدأت تقضي حاجتها. تعسر عليها ذلك أول الأمر. تذكرت العلاقة بينها وبين عزوز قبل عشرين سنة ثم استمرارها بفتور طيلة هذه المدة. دخلت في المجموعة من جديد وظلّت صامتة. تقدمت نحو العيساوي: شاب قوي ولكنه قذر. غير أن كل شيء هنا قذر. وقالت عيوشة:

- هل سيدفع لنا العياشي دية؟

فقال العيساوي:

- ومن قال لك ذلك؟ إنه لا يدفع واجب التأمين. لو كان يفعل لدفعت الشركة.

وسألته عن معنى الشركة. فقال لها إنها شيء معقد. ولم يكن هو نفسه يعرف عن الشركة شيئًا. شركة التأمين هي شيء يدفع كثيرًا من المال للمعطوبين في العمل ربما. وقال لها إن العياشي لن يجيء إلى هنا إذا كانت الأحوال في غير صالحه. وانسحب ونظر في أنفه كل الرجال وكل النساء. وقال علال للطفل:

- هل رأيت سيارته؟

- لا.

وقال طفل آخر:

- هناك سيارة ولكنها ليست له.

- هل أنتما متأكدان؟

- نعم.

قالا ذلك بصوت واحد وبثقة.

مضى العيساوي وقد انتفخ وجهه وازداد تفلطحًا. كان يدوس بقدميه الحافيتين التراب الجاف في المنطقة. وكانت أحجار تنوء تحتها ولكنها كانتا كالأحجار، صلبتين وحديديتين فيهما كثير من القوة والعناد. ثم أخذ ينحدر في اتجاه المقهى المطل على أسفل الطريق. كان المقهى يبدو رابضًا

كالعلبة. ظلَّ ينحدر بقوة وبسرعة. لأن المنحنى كان يدحرجه إلى تحت. أخذ يتدحرج بلا إرادة. ثم توقف بإرادة. أمسك بالنباتات المنتشرة في المنحنى بشكل أشجار شوكية. فكّر مليًّا. ثم دخل في جوف النباتات وخرج إلى الطريق وجعل يتدحرج إلى تحت. ظلّ تحت الشمس عند قدم المقهى المعلّب ينتظر العياشي. كان يفكر في وفاة أخيه. وربما أيضًا في وفاة أمه. فهي ضعيفة لا تحتمل أكثر مما يجب. ثم فكّر أيضًا وعيناه في أصابع قدميه المتسخة الغليظة، في مقدار الدية التي يمكنه أن يحصل عليها. كان كالآخرين الذين يفكرون في الدية عندما يخلون بأنفسهم ويضعون حسابًا وتصاميم لمصاريف طويلة الأمد. حتى أمه المتألمة التي ستموت من جرّاء فقدانها ولدها، كانت هي الأخرى تناقش بينها وبين نفسها هذه المسألة. كم تُقدّر الدية التي سيدفعها العياشي؟ هل تستطيع أن تشتري بها شيئًا؟ هل يمكنها أن تعولها إلى آخر حياتها؟

كان الليل في أوله يوم أن مضى على غياب المركب ثمانية أيام. نظرت أمه في عينيه، ثم في أنفه المركّب بطريقة غريبة على صفحة وجهه:

– يا وليدي. المركب فُقد من غير شك. إن واعزًا باطنيًّا يقول لي ذلك.

– العلم عند الله يا أمي. فالحياة والممات بيده.

- صحيح. ولكن أخاك ضاع.

- هل تعتقدين في ذلك حقًّا؟

- لا يخونني حدسي، وأمك ستموت من فرط الألم على فقدانه.

- إنه أعزّ لديّ من أي إنسان في هذه الدنيا.

نظر في وجهها المحتقن الأزرق وظلّ صامتًا إلى أن أضاف:

- لقد ذهب البحر بكل المهدويين.

سكتت أمه ولم تجب. كانت أطرافها ترتعد. ثم قالت:

- ولكن يا بني يا العيساوي. هذه مشيئة الله كما تقول. ولكن ذلك قاس على قلب أمك. إني لا أستطيع أن أتحمل هذا. لم يعد في القرية سوى النساء والعجائز الذين لا يقدرون على شيء.

نظرت أمه في أظافر قدميه القذرة. ثم حكّت رأسها لأن الحشرات الصغيرة كانت تثقب جلدة رأسها الذي لم تضع له الحناء منذ مدة. ثم تأملت سرواله الممزق وركبتيه الغليظتين البارزتين من خلال اهتراء السروال. قالت بصعوبة:

- إذا قدّر الله وضاع أخوك فلي فيك تعويض.

أحسّ العيساوي أن أمه بدأت تفقد إحساسها الأصلي.

- ولكنه كان يحبك.

- أعرف ذلك. أمك أيضًا تحبكما. هل تستطيع أن تنكر ذلك؟

- حاشا يا أمي.

خرج ذاك المساء، ونظر في اتساع رحب وداس في الظلمة ثم عاد. كان الجو لطيفًا والهواء غير لزج. وقال بتشكك:

- إن العياشي لن يستطيع دفع الدية. لأنه لم يؤمّن على مركبه.

- ولكن الحكومة ستدفع. إذا لم يدفع هو فهي التي ستتكفل بالأمر.

- ماذا تعنين بالحكومة؟

- القائد والمقدم والآخرون.

- أنت لا تعرفين شيئًا.

ثم غيّر مجرى الحديث وقامت أمه لتنام. كان قلبها متفطرًا، موزعًا بين العودة والدية.

كان الآن عند قدم المقهى جالسًا. وقد أحنى رأسه وهو

يحدّق في التراب الجاف بين قدميه، تراب المنطقة الجاف الـذي لا يصلح سوى لأشجار لا تثمـر، بـالرغم مـن أنهـا خـضراء باستمرار، طيلة العام والعـام. كـان أنفـه يـزداد انتفاخًـا عـلى صفحة وجهه الغليظ الأسمر الذي لوّحته الشمـس والملوحـة. رفع رأسه من تحت الدرج، ولم يكن هنـاك أحـد ينحـدر مـن المقهى المرتفع قليلًا عن الأرض، لأنه بـرز في المنحنـى ويطـل على البحر. هنا يأتي العياشي باستمرار وهنا ينزلـون ليـشربوا، هو ومن هم في طبقته يـشربون عنـدما يحـصلون عـلى بعـض النقود بطريقة مشروعة أو غير مشروعة. كان يحسّ أن جــده الآن، في هذه اللحظة بالذات، موهن. بالرغم من ذلك، وقف بخفة كمن يستعد للقفز. صعد الدرجات التي لم يكـن يـشعر بوخز أحجارها الصغيرة الناتئة بقدميه. سلّم على المعطي الذي كان منكبًّا على أظافره ينظفها تحت الـقيفة. نظر إليـه الأخـير بتثاقل وسأله عن المركب. قال العيساوي:

- نحن ننتظر العياشي. ذهبنا إلى البحر ولم نر شيئًا.

- سـيصل بعد قليل ويمكن أن عنده أخبارًا.

طلب العيساوي من المعطي سيجارة، ففتش هذا الأخـير وأعطاه واحدة وهو يقول من خلال سعال دائم أورثه إيـاه داء السل الذي لا يعرف أحد متى وفي أي مكان أصابه:

- سيدفع العياشي ديات كثيرة. وهذا فيه الكفاية. فما دام الإنسان يموت بلا تعويض عادة، فليمت هذه المرة بتعويض.

- أنت تتكلم بطريقة غريبة.

- أبدًا. الحقيقة نموت بلا تعويض. أنا شخصيًّا أريد أن أموت بدية لأنني سأموت لا محالة. اليوم أو غدًا.

- أنت تتكلم بطريقة غريبة.

وقف المعطي وقد اشتدّ عليه السعال. كان صاحب المقهى يعرف أنه مريض ويشغله مع ذلك مقابل ثمن بسيط. سمع صوته الأجش من الداخل فترك العيساوي وحده. انطلق إلى الداخل وهو يسعل. بقي العيساوي يفكر في كلام المعطي: معنى أن نموت بلا تعويض معنى أن نموت بتعويض. ورأى صورة أخيه وأمه المتألمة التي فكرت هي الأخرى في الدية رغم حبها لولدها. وتخيل أن الدية أصبحت شعار المهدويين. ما من أحد يذهب أو يختفي إلا ويفكر أهله في الدفع: من يدفع؟ من يعوض عن هذا الموت؟ وبدا له أن هذه أشياء غريبة حقًا: أن نطلب تعويضًا ونرضى بموت إنسان عزيز.

كان ينفث سيجارته بتأمل وينظر إلى البحر البعيد. ثم إلى الأشجار الخضراء التي لم تحاول أن تثمر. وقال لنفسه: «مهما

يكن فهل يستطيع العياشي أن يدفع الدية للجميع. وهو لم يدفع واجب التأمين في حياته قط. من أين له بالنقود؟».

ذات مرة، بعد أن طلع العيساوي من الماء كالسلحفاة، وكان يسبح هو والحسناوي في البحر المالح، وعندما استلقيا فوق التراب الجاف الذي كانت تغطيه آنذاك أحجار صغيرة ناتئة لا يدري أحد من أين نبتت، قال الحسناوي بأسف شديد:

- ليتني كنت كالعياشي، أملك المراكب الكثيرة وتكون لي سيارات ويكون لي...

قاطعه العيساوي:

- لا تغتر بالمظاهر. إن ما يربحه يدفعه ثمنًا لإصلاح هذه المراكب.

- ولكن مع ذلك فهو غني. أعتقد أنه أغنى واحد في المدينة. أنا شخصيًّا أتمنى أن أكون مثله.

- إني أعتقد أنك أحسن منه حالًا. فهو دائمًا يشكو ويتبرم. لا أريد حياة مثل تلك.

قال الحسناوي:

- اسمع يا العيساوي. أنت تهذي فقط. إن شيئًا قليلًا خير من لا شيء. لا شك أنك ألفت حياة الكلاب هذه.

قال العيساوي:

- أنت تقول كلامًا معقولًا. ولكن كيف تصبح مثل العياشي. لقد ترك له أبوه ثروة وأنت ماذا ترك لك أبوك؟

- إن أباه لم يترك له شيئًا. يقال إنه كان ماسح أحذية. يوم دخول الأمريكيين كان صغيرًا إذ ذاك وسموه (بوي). هل تعرف معنى بوي؟

- لا. أعتقد أن معناها لص.

- معناها طفل. هو الذي قال ذلك. وهو لا يحب هذا الاسم. ويصيبه هوس لا حد له إذا نودي عليه بـ(بوي).

عندما انتهى الحسناوي من الكلام وقف وقفة خفيفة. مضى نحو الماء. انتفض العيساوي وتبعه إلى الماء. ثم أتما حديثهما عن العياشي وهما يسبحان ويرشان بعضهما بالماء المالح.

يذكر العيساوي الآن، تحت السقيفة، أنهما قالا في ذلك اليوم بأن العياشي لا يدفع واجب التأمين. أصبح في أذهان الناس أن العياشي لن يدفع الدية إذا ما حلّت المصيبة. فكّر الجميع أن الدية ستقوم مقام التعويض الذي تقوم به شركات التأمين في مناسبات مثل هذه.

كانت الكراسي بعيدة قليلًا عن العيساوي. وكان هو يجلس في الظل وقد غلّف وجهه يأس. وعندما فتح فمه ليتثاءب، كانت أسياخ الحديد القذرة المتآكلة في فمه تنتأ بفوضى وتزداد بروزًا. وظلّ هناك يروض الأفكار في ذهنه. وكانت السيجارة التي أعطاه المعطي إياها قد انطفأت منذ لحظات. وكان قد دخّنها عن آخرها، وفكّر بعد ذلك في جرات من السبسي. لم يكن يملك سبسيًا. كان له واحد ولكنه تكسر لأنه كان يضعه دائمًا في جيب سرواله الخلفي وينساه. وعندما جلس تكسر إلى قطعتين.

عندما خرج المعطي سأل العيساوي:

- لماذا ناداك المعلم؟

- لقد ضاعت له بعض الكؤوس وقال إني سرقتها.

- إنه دائمًا يتهمك.

- وماذا أفعل؟ لقد كانت الكؤوس خلف رأسه وهو يفتش بعصبية. إنه طيب مع ذلك.

- لكن أسوأ ما فيه أنه يتهمك دائمًا.

قال المعطي:

- أجل. ولكنه لا يطردني.

- ألا تعرف لماذا؟ إنه لا يعطيك ثلث أجرة خادم.

ضحك المعطي وأجاب بثقة:

- ماذا أفعل هنا؟ لا شيء. ليس هناك زبائن كثيرون. فبدلًا من أن أبقى في البيت أجيء إلى هنا. ثم إني أشرب النبيذ مجانًا. وفي بعض الأحيان يعطيني كمية لا بأس بها من الكتامية الرفيعة.

- صحيح. ولكنه ينهرك.

قال المعطي:

- ثم إني مسلول. هل تعتقد أن هناك أحدًا سيشغلني؟

لم يقل العيساوي شيئًا. وظلّ صامتًا برهة وجيزة. وفي الوقت الذي كان فيه المعطي يبحث عن شيء في جيبه، كان علال يصعد درج المقهى. وكان يُسمع لقدميه الحافيتين وقعُ ارتطام بالأحجار الناتئة في السلم الحجري. ورفع العيساوي رأسه. وظلّ صامتًا لا ينبس بكلمة. بادره علال:

- ألم يأت العياشي بعد؟

- لا، لم يأت.

وقال المعطي لعلال مفاجئًا:

- تعال هنا واجلس. لقد قلت للعيساوي إنه سيعود بعد فترة قليلة.

فقال علال:

- محال أن يعود إذا وقعت الكارثة.

- لا تكن متشائمًا. سيعود، وسيدفع الدية إذا وقعت الكارثة.

- إنه لن يدفع أي شيء. وها أنا أقول لكما.

قال المعطي:

- سيدفع. وإذا لم يدفع هناك الحكومة وهناك...

- وماذا ستفعل الحكومة؟

نظر علال بعمق وتركيز في أنف العيساوي الذي ازداد انتفاخًا عندما استمع لهذا الحديث الذي لا يدور إلا لمامًا بينهم. وقال له:

- ما رأيك في هذا؟ العيساوي، أنت نائم.

- لا، لست نائمًا. أفكر فقط كيف يستطيع أن يدفع العياشي الديات لعشر عائلات. ماذا يتبقى له؟ ومن أين تأتيه أموال الدفع؟

قال المعطي:

- عندي فكرة. يستطيع أن يدفع لكم بالتقسيط.

قال علال:

- إنك تهذي. هذا كلام غير معقول. الناس لا يريدون تقيطًا. لقد مات أعزاؤهم ولا يريدون تقيطًا. ولا بد من التعويض أو الانتقام.

ثم وقف علال، وانحدر مع السلم الحجري. وكان ينصت لصوت ارتطام قدميه بالأحجار. صوت باهت وغير حاد. وقف العيساوي كذلك ثم تبعه وهو يصعد المنحنى ويسير باتجاه البيوت. كانا يبدوان كحيوانين. ولم تكن على جسديهما سوى خرق ممزقة متسخة. كان ذلك شيئًا طبيعيًّا بالنسبة إليهما. وكانت تدور أفكار غريبة برأس علال. أما العيساوي الذي كان يتبعه فلم يكن يفكر سوى في أخيه وأمه في هذه اللحظة بالذات. كان يتذكر حوادث كثيرة ومواقف حدثت له مع أخيه. وعندما رفع رأسه رأى علالا يتلهى بإمساك بعض النباتات المنتشرة على جانبي الطريق الصاعد إلى القمة نحو القرية. وخطر له أن علال أحكم منه، فهو يفهم أشياء كثيرة. وقال في نفسه لو أنه سبق له أن دخل إلى المدرسة لكان رجلًا لا كالرجال، فهو مؤهل لأشياء كثيرة. لكن قريتهم لم تعرف يومًا المدرسة. كان هناك مسجد فقط. والذين يحفظون القرآن لا يستطيعون أن يصبحوا موظفين كبارًا. والوظيفة تتطلب تعلم الفرنسية والحساب. فكل الموظفين مع القائد يتكلمن بالفرنسية ويتقنون الحساب.

عندما توقف علال في القمة التفت إلى العيساوي وقال له:

- إن أمك تنتحب. أسرع إليها.

قال العيساوي بصوت خفيض:

- أعرف ذلك. إنها ستموت حزنًا على ابنها. لقد ذهب ولن يعود.

أخذ يركض. أمسكت بتلابيبه نباتات شوكية فمزقت جزءًا من سرواله المهترئ. ولكنه لم يعر للأمر أهمية. كان فقط يندفع نحو أمه كالحصان القوي. وعندما بلغ المكان الذي وجدها مرتمية فيه ألقى بنفسه عليها وهو يقول:

- كفي عن البكاء. لا أعتقد أنهم ضاعوا. سيعودون لا محالة.

- ومن أدراك يا بني؟ أخوك ضاع والسلام.

قال العيساوي:

- لا تكوني متشائمة يا أمي.

- كيف لا أكون متشائمة؟ المهدويون كلهم ذهبوا. منذ صغري وأنا أرى الموت يُخيم على هذه القرية. الموت يا بني في كل مكان. كيف تقول لأمك بألا تتشاءم؟

كانت هوام صغيرة تنتشر في رأسها الأشعث. حدّق العيساوي في جبين أمه. رأى قملة سارحة بحرية. ثم قال:

- اذهبي يا أمي وفلي القمل. سيأكلك وأنت حية.

- لا أستطيع ذلك. كيف أفعل وأخوك ضاع. لم أعد في حاجة إلى زينة. إن حياتي زائدة وبلا معنى.

وقفت وهي تمسح عينيها. كان حزن كبير يجثم على وجهها العجوز الذي يبدو كالقناع. انصرفت دون أن تقول كلمة للعيساوي. ظل هو في مكانه وتابعها بنظراته. كانت تمشي بتثاقل. بلغت البيت الواطئ المغروس في التراب الجاف. كانت هناك أكواخ صغيرة أخرى مبثوثة إلى جانبه. وكان خلف بيتهم صومعة مصنوعة من الخشب ومغلفة بالعلب التي جلبت من مكان ما. لذلك فقد كانت الصومعة تلمع وتعكس أشعة الشمس، فالعلب لم يغطها الصدأ بعد. كان العيساوي يفتخر بوجود مسجد بالقرب من بيتهم. لكنه لم يذهب يومًا ليصلي فيه، لأنه كان في حاجة إلى وضوء مستمر. غير أنه عندما كان صغيرًا، كان يذهب ليصلي في ليلة القدر مع رفاقه، وذلك حتى يستطيعوا في النهاية أن يتمكنوا من الحصول على الطعام الذي يوزعه المحسنون والمحسنات في المسجد. كان يفعل ذلك عندما كان صغيرًا. وكان هو ورفاقه يتعبون وراء المصلين. وكانت تتوزعهم الرغبة بين الخروج -

لأن الوقوف مدة ساعات شيء متعب – وبين البقاء للحصول على طعام في نهاية الصلاة. أما الآن فإنه يذهب إلى المسجد في وقت متأخر، يرتدي جلابته التي يحتفظ بها لهذه المناسبات، هو وبعض الأقران، ويجلسون يتحدثون عند باب المسجد حتى يقدم الطعام. فيأكلون حتى يشبعوا، ولا ينسى أن يحتفظ لأمه كما يفعل الباقون بقطعة لحم. ولم يكن هذا شيئًا محرمًا البتة، فكل الناس – حتى الفقهاء – يفعلون نفس الشيء: يحتفظون لأزواجهم بقطع من اللحم توضع عادة في قب الجلابة. ولم يحاول يومًا أن يذهب إلى الصلاة برغم افتخاره بأن المسجد يوجد قرب بيتهم.

كانت أمه قد اختفت نهائيًّا. لقد دخلت البيت فظلت الصومعة تعكس أشعة الشمس في المكان. ثم التفت ونظر في الجماعة التي ما تزال تتحرك أياديها في الفضاء. مشى نحوهم بحذر. كانت الأرض والأحجار تخز قدميه الحافيتين. رأى عزوزًا قادمًا من بعيد. كان يبدو له الآن أن هناك عددًا لا بأس به من الناس. كانوا حوالي الثلاثين. لم ينتبه لبعض الأطفال الذين تجمعوا بعيدًا، حول خذروف يدور بنشاط واستمرار. رأى عزوز كذلك يدخل إصبعه في أنفه وهو يتدحرج كالسلحفاة. كانت عصاه معلقة بين السماء والأرض. وكان يحركها دون توقف في غضب ظاهر. وعندما اقترب من

الجماعة التي كانت ما تزال تهدر كالبحر وتتجمع وتتفرق حسب رغبتها، أسرّ للدرقاوي كلمة. فكر هذا الأخير مليًّا. لم يعره الباقون أدنى اهتمام لأنهم كانوا منشغلين بالتساؤلات عن مصير المركب وبالاقتراحات والافتراضات ثم التفت الدرقاوي الذي كان هو مدرس الصبيان وإمام القرية وقال لعزوز كلمة فهزّ هذا الأخير رأسه وأبدى إعجابه. فَخَلُصَ الفقيه بذلك إلى رأي: أن يصلّوا من أجل الأشخاص الضائعين. رفع عزوز عصاه ولوّح بها في الفضاء وهو يقول:

- استمعوا يا بني آدم، استمعوا...

غير أن أحدًا لم يستمع إليه. كان هديرهم وحركاتهم كثيرة بحيث استطاعت أن تغطي على صوته وحركاته. صرخ مرة أخرى. كان الدرقاوي يرفع يديه وتتحرك شفتاه، غير أن صوته لم يكن مسموعًا. ثم بدأت الأصوات تنخفض شيئًا فشيئًا. وبدأت الأعين تتوجه بتتابع إلى عزوز والدرقاوي. ولما أيقن هذا الأخير أن الأمر أصبح بين يديه وأن كل شيء موكل إليه، قال باحترام وبثقة في نفس الوقت:

- اسمعوا يا جماعة. في حالة مثل هذه يجب الابتهال إلى الله والاعتراف بقدرته، وتجب كذلك الصلاة من أجل هؤلاء الذين ماتوا بلا قبور.

هيمن الصمت عليهم. بدأوا ينظرون إليه وقد ألجم الاندهاش والحيرة ألسنتهم. كانت امرأة هي من غير شك، حادة بنت مسعود، متدلية النهدين، عارية الصدر، وقد تعلق طفلها بعنقها، تنظر إلى الدرقاوي بإعجاب كبير. ولّما لم يستطع أحد أن يتكلم أو يوافق أو يبدي عكس ذلك قالت:

- ولكن يا السي الدرقاوي، الصلاة لا تكون إلا بعد الموت. أليس كذلك يا السي عزوز؟

قال عزوز:

- صحيح. تلك صلاة الجنازة. ولست أدري ما رأي الفقيه الدرقاوي في هذا. هل نصلي على الأموات أم على الأحياء؟

قال صوت مغمور:

- كلاهما معًا.

سكت. ولّما التفتوا لم يتعرفوا على المتكلم. غير أن الدرقاوي تأمّل برهة في التراب الجاف. ثم نقل نظراته إلى بلغته الجديدة. وكان هو الوحيد الذي يضع البلغة. قال بزهو:

- المركب غاب ولم يعد. هذا هو اليوم العاشر. وبعد قليل سوف تغرب الشمس وسيحل اليوم الحادي عشر. وأنتم

مراكبكم لم تكن تتخلف كل هذا الوقت. ومعنى ذلك أن صاحب الأمانة (سبحانه) استعاد أمانته. فرحم الله من قضى وأطال عمر من بقي. والصلاة على المؤمنين كانت حقًّا. فمن أراد أن يصلي فذاك ومن لم يرد فملقاه مع ربه.

ثم رفع الدرقاوي عينيه، ورأى الصومعة، كانت تلمع بفعل الشمس. كان لمعانها يبدو له ضوءًا إلهيًّا. رفع إصبعه إلى بعيد وأشار:

- يجب أن تكونوا مسلمين وكل مقدور لا محالة حاصل.

كان وجه الفقيه الدرقاوي نظيفًا من كثرة الوضوء، يلمع بنور يبعث على الاحترام. نظرت حادة بنت مسعود في الجماعة، ثم قالت:

- ماذا تنتظرون؟ إن السي الدرقاوي لا يريد لكم إلا الخير. اذهبوا وصلّوا.

قال الصوت الذي يأتي من الخلف دائمًا:

- لكن علام نصلّي؟ على الأموات أم على الأحياء؟

دار الدرقاوي حول نفسه:

- لقد حصل المقدور. والله بيده كل شيء. وأنا لست مسؤولًا عن أحد. كل مسلم بعمله.

انصرف الفقيه الدرقاوي. تكتلت الجماعة التي ازداد عددها بعد لحظات وجيزة. ارتفع الهدير. بدأت الأيدي تتحرك، ترسم في الفضاء أشكالًا هندسية مختلفة. لم يكن بالإمكان آنئذٍ الاستماع إلى صوت من هذه الأصوات المختلطة، أو فهم ما يدور من حوار. كان العيساوي معزولًا عن الكتلة البشرية التي تتحرك، ثم انفصل نهائيًّا عنها. ضرب على كتف الحسناوي وهو يقول:

- لقد قال لي المعطي إن العياشي سيعود بعد قليل. سنذهب لنرى.

نظر إليه الحسناوي برثاء وهو يقول:

- إنها كارثة. غير معقول أن تحدث أشياء مثل هذه.

قال العيساوي:

- لا أظن أن العياشي سيعود بعد اليوم إلى هنا. كيف يستطيع أن يدفع لنا الديات؟

قال الحسناوي:

- لا تكلف نفسك التفكير هكذا. ما من حشرة إلا وعلى الله رزقها. إذا لم يجئ فالقائد هو المسؤول وهو يعرف كل شيء. ثم إن الحكومة أقوى من العياشي.

قال العيساوي:

- القائد لن يفعل شيئًا لأنه صديق العياشي. فهو يجلب له الويسكي ويهديه له مجانًا.

نظر الحسناوي بلا مبالاة وأكد لصديقه:

- إنهم يفعلون كل ما ليس ممكنًا.

كانا يتحدثان وهما يسيران باتجاه المقهى. لم يكن في إمكان أحدهما أن يتخلى عن حزن الآخر. تدارك الحسناوي الأمر وهو يقول:

- لماذا لا نذهب للصلاة؟

قال العيساوي بصوت غليظ:

- أنا لم أصلِّ منذ مدة. ثم إني لا أعرف كيف أصلّي.

قال الحسناوي:

- هيا بنا. إن الجماعة ذاهبة إلى المسجد. فلنترحم على أرواح موتانا.

قال العيساوي:

- غير ممكن. اذهب أنت. ستجدني في المقهى ولن أعود إلا برفقة العياشي.

انحدر في الطريق المؤدية إلى تحت. بينما وقف الحسناوي مترددًا قليلًا. ثم قرر أن يذهب للصلاة.

كانت الطريق تنوء تحت قدمي العيساوي وهو يتدحرج. تنوء دائمًا. لم يكن يشعر بذلك كالعادة. وعندما رفع رأسه أدرك أن الشمس ستغرب بعد قليل وتذكر أيضًا أنه لم يأكل شيئًا طيلة هذا اليوم. وأغلب الظن ألا أحد استطاع أن يتناول لقمة من الطعام في القرية.

كان بيت صغير من الخشب لا يخضع لأي نظام هندسي قابعًا في مواجهة ساحة متربة فيها بلل وصلابة وأوساخ. كان هذا البيت هو دكان المهدية الوحيدة. له فم مفتوح على الفراغ في الوسعة. ينقسم الباب إلى قسمين: الأول في الأعلى يطل منه رأس إبراهيم، بينما الجزء الثاني يغطي أسفل جسده ويستعمل بمثابة خزّان لبعض قناني الزيت الفارغة والجوالق القصديرية التي أُفرغت من محتوياتها. وعندما يقف إبراهيم ليقدم خدمة للزبون، تصطدم قدماه بالجوالق أو الزجاجات، فيسمع لها صوت موسيقى فيها نشاز. موسيقى محسوسة لا تخضع لنوتة. كان إبراهيم أَهْتَمَ لا يتحدث العربية العامية بطلاقة. عندما يريد أن يخاطب مذكرًا فإنه يستعمل المؤنث والعكس عندما يريد مخاطبة المؤنث. كان بربريًا من سوس. وكان عسيرًا على

مثل عدد كبير من أمثاله تعلم اللغة العربية العامية والتحدث بها بطلاقة. لذلك عندما زحفت عيوشة أمام دكانه أطلّ من فجوة في الباب، وظلّ أسفل جسده مختفيًا وقال:

- آجي انتا. اعطني فلوسي.

وقفت عيوشة أمامه غير مضطربة ولا مبالية بشيء. كانت تشعر أنها في حاجة إليه. لقد بدأ الزمن يأكل من جسدها ومن قوتها. كانت خرقها البالية ترتعش فوق جسدها النحيل بفعل الهواء الخفيف الذي يهبّ قادمًا من جهة البحر الذي يقع خلف الأشجار القصيرة الخضراء. ظلّت واقفة لا تجيب. ولكنها فتحت فمها كالسمكة العطشى التي أخرجت من الماء فورًا وقالت:

- إبراهيم. رابعة سكر ورابعة زيت. أوقية أتاي. لقد طردتني أمس لكن أين أذهب؟ هل هناك حانوت آخر في القرية؟

- أعطيني فلوسي يا عيوشة.

- اسمع يا إبراهيم. أنت تعرف أن القائد يماطل وأملاك العياشي ما تزال هنا. سيدفع لنا الدية وسنرد لك دينك.

- لن يدفع لكم العياشي حتى خرية. أنتم ما تزالون تحلمون. كم مضى على غرق المركب؟ أجيبي. لماذا أنت صامتة؟

- لا أدري يا بني إبراهيم.

- لست ابن أحد.

كان في الأربعين وملامح من الصلع قد ظهرت على رأسه الصغير المكور الفارغ من فوق مثل تفاحة. أحيانًا يقولون له عمي إبراهيم، وأحيانًا، ولدي إبراهيم، وأحيانًا أخرى، با إبراهيم. التسمية لا علاقة لها سوى بالزبون فهو الذي يجعله عمًا أو جدًّا أو ولدًا. أما عيوشة فتجعله دائمًا ولدًا. وقالت من جديد، بينما الهواء الخفيف يدفع ثيابها وخرقها البالية في كل اتجاه، بحيث تلتصق بعظامها النخرة:

- ولدي إبراهيم.

قال إبراهيم بعصبية:

- ماشي ولدك. ماذا تريدين؟

- تترك عيوشة تموت. عجوز لا حول لها ولا قوة. ماذا فعلت يا رب؟ بالله عليك يا بني قل لي: ألا نتعامل معك منذ أن جئت إلى هنا؟

- لا يهمني هذا. ما تريدين بالضبط؟

- لقد قلت لك. رابعة سكر ورابعة زيت. أوقية أتاي.

- ما عنديش.

- أرجوك يا وليدي.

- طيب إذا أعطيتك من الذي سيدفع الدين الذي عليك؟

- العياشي.

- العياشي لن يدفع حتى خرية. أين العياشي؟ أمي عيوشة بدلي هذه الساعة بأخرى. اذهبي من فضلك وإلا فككت رقبتك عن جثتك.

- أن تفعل ذلك خير من أن أعيش. ماذا سآكل؟

قفز ظل إلى المكان. ظل كبير ضخم كظل شجرة بلوط. وعندما هزّ إبراهيم رأسه، رأى حدوم ملفوفة في شراوطها. اقتربت منه وقد لوت مؤخرتها بسرعة وأدارتها نحو الساحة الصغيرة مباشرة. وتكوّن في مؤخرتها حفير واسع كوّنته الثياب التي دخلت بين فلقتي المؤخرة. ويمكن رؤية لحمها من وراء ثقب واسع في ثوبها، الذي لم تكلف نفسها عناء خياطته أو ترقيعه. كان الأطفال الصغار عندما يرون ذلك الثقب الذي ظهر منه لحم أبيض كالشحم يتفكّهون. وأحيانًا كان أحدهم يقول: «سأذهب لأخوّ (...)» فيجيب الآخر:

- إذًا خوّ (...) تقتلك.

- إنها تحب ذلك.

- اذهب وحاول.

ويذهب أحدهم فيحاول أن يلمسها، فتدور مسرعة وتصفعه بقدمها حتى يئن فيهرب الآخرون، ويتفرقون إما بين الأكواخ القليلة الصغيرة المنتشرة بلا نظام، أو ينحدرون إلى النباتات الشوكية جهة المقهى.

عندما رأى إبراهيم ظل حدوم، حكّ أم رأسه وقال لها:

- حدوم، نظري هذه السيدة. عليها دين كثير وتريد رابعة سكر ورابعة زيت. هل هذا معقول؟ من سيدفع عنها؟

قالت حدوم:

- ماذا تفعل يا إبراهيم؟ عيوشة مسكينة، ما عندها حد.

- وأنا.. آش عندي؟

- عندك الله.

قالت عيوشة:

- سبحانه! يرضى عليك يا بنتي.

وأخرجت حدوم درهمًا ودفعته لإبراهيم:

- ثمن الصابون ورد الباقي.

انسحب إلى الخلف ومدّ يده إلى الرف، حيث بعض زجاجات ماء جافيل وباكيتات الملح والصابون. أخذ قطعة صفراء من الصابون الرخيص. قدمها لحدوم. حركت جسدها كله في خفة وهي تتناول الباقي. عندما أصبحت على بعد مترين منه حك أم رأسه من جديد، ورأى الثقب في مؤخرتها. وعندما ابتعدت حدوم قال لعيوشة:

- آش بغيتي؟ اذهبي وخليني نسترزق.

دون أن تتكلم أو ترد عليه. جرّت جسدها الهزيل مهزومة. اختفت مباشرة من أمامه. مرّ أمام إبراهيم أربعة أطفال. تفرقوا كالخراف وانسحبوا جهة المسجد وهم يقولون في صوت واحد:

دا إبراهيم

سراق الطحين

فينك فين

وجيتي منين؟

دا إبراهيم... إلخ.

قال إبراهيم بصوت مرتفع وهم يبتعدون نحو المسجد:

- الله يمسخكم. أولاد الحرام.

مدّ له كل واحد إصبعه وانحدر في طريق المقهى. وعندما أصبحت عيوشة على مقربة من كوخها، رأت عزوز جالسًا وقد دلى عصاه إلى جانبه. كان الحسناوي هناك أيضًا. وكانت بين أصابع العيساوي لفافة. لم تعد تميز الأشياء من بعيد. تراه ينقل يده إلى فمه. إنه يدخن بدون شك. أما ما يدخنه فهذا ما لم تستطع رؤيته. لقد ضعف بصرها، وأصبحت تؤكد لنفسها أنها لا محالة ستصبح عمياء. وما أفظع أن يصبح الإنسان أعمى في أرذل العمر. وقالت في نفسها: لا يجد الإنسان حتى من يقدم له إناء يبول فيه أو يأخذه إلى حفرة ليقضي فيها حاجته. وقالت أيضًا: عندما نصل أرذل العمر، القبر أرحم من الحياة يا رب. ثم قالت أيضًا: إبراهيم شلح كلب. الشلوح لا يرحمون. وهزّت الريح خرقها البالية ثم ألصقتها بجسدها النحيل الذي أصبح كفزاعة طيور.

وقال عزوز من خلال اختناق ناتج عن سيجارة الحسناوي:

- عيوشة. هل كنت نحو المقهى؟

-- من عند إبراهيم الشلح. لم يعد يرحم.

- خصوصًا في هذا الوقت بالذات.

قال الحسناوي:

- لقد تفرْعن. الحوانتية كيف كيف!

قالت عيوشة لعزوز:

- أمس ذهبت معي ورأيت بعينيك. أما الآن فحدوم تقول لك. لقد رأت بعينيها ما الذي حصل. من أجل قليل من السكر والزيت طردني كالكلبة.

قال عزوز:

لا حول ولا قوة. لو كان المرحوم على قيد الحياة..

قالت ببكاء:

- كان المرحوم بذراعه يقفل الأفواه ولا يرضى بمد يده لأحد. ولكن الدنيا غدّارة. شي طالع شي هابط.

قال الحسناوي:

- لن نموت جوعًا مهما يكن. لن يموت أحد جوعًا. أقل ما نفعله صنارة وقصبة.

سكتت عيوشة. قرفصت أمامها. خرج الدرقاوي من باب المسجد واتجه نحوهم. وفي هذا الوقت بالذات، كان صياح بعض الأطفال الصغار يرتفع بتلاوة القرآن. كان خليطًا من أنغام تكون في مجملها هديرًا مزعجًا ثقيلًا على الأذن أيضًا.

عندما اقترب الدرقاوي من الحسناوي وعزوز وعيوشة، ارتفع زعيق طفل في المسجد. وقال الدرقاوي وقد ابيضت عيناه: «أولاد الكلاب!» قالها بهدوء. ثم عندما اقترب وأصبح على مقربة منهم قال:

- من نزل منكم إلى تحت؟

قال الحسناوي:

- أين؟

- المقهى.

قال عزوز:

- تغلبني العقبة. لم أعد أستطيع النزول. اشتقت ولو لطرح واحد من الضامة تحت.

قال الدرقاوي:

- لا ضامة ولا أي شيء. أريد أن أتحدث عن العياشي.

كانت أصوات الأطفال ما تزال ترتفع ثم تنخفض. أطلّ رأس صغير من باب الجامع ثم اختفى في الوقت الذي كان الدرقاوي يولي فيه الجامع ظهره. ولو رآه لأدركه فورًا وأشبعه ضربًا على قدميه. لكنه لم يره. استطاع رأس آخر أن يعيد الكرة.

قالت عيوشة:

- آشنو عند العياشي؟

قال الدرقاوي:

- لم يبع أملاكه. لكن كل شيء ما يزال في ملكه.

- من أين لك هذا الخبر؟

- المعلم، صاحب المقهى. لذلك قلت لكم. سألتكم عمن يكون قد نزل إلى تحت.

قال الحسناوي:

- غير ممكن.

قال الدرقاوي:

- يمكن أن تتأكد من ذلك بنفسك. اذهب إلى تحت واسأل المعطي أو أيًّا كان. سيقولون لك إنه هنا. ولم يذهب إلى آسفي أو إلى أي مكان آخر.

قال عزوز:

- اسمعي يا عيوشة. الرحمة لم تنقطع من الدنيا. إذا عاد فبعودته الخير والبركة.

قالت عيوشة:

- كم سيعطينا حتى لو عاد؟ هل يطعمني حتى أموت؟ أنا عجوز ولم أعد أطيق العمل. أصبحت جثة.

سكتت عيوشة. سكت الجميع كذلك. أخذ الدرقاوي يخرج قدمه اليمنى من البلغة. ثم يرفعها بأصابع قدمه، ويفعل كما لو كان يفرغها من تراب وهمي. بالفعل تساقطت بعض حبّات التراب التي لا مناص منها للابس البلغة. وعندما أعادها إلى قدمه قال لعيوشة:

- أنت ما لك؟ هل تريدين الخبز؟ تعالي أعطك إياه. ثم أخرج قدمه من جديد فظهرت نظيفة. قدما الدرقاوي نظيفتان بيضاوان كالشحم. لم تكونا بيضاوين ولكنهما تميلان إلى الصفرة، خصوصًا عند مؤخرة القدم. وقال من جديد وهو لا يزال واقفًا:

- عيوشة. لماذا تشتكين وتبكين؟ إنك كثيرة النواح من أجل لا شيء.

ردّ الحسناوي:

- إنها تشعر بنهايتها، لذلك فهي الآن تعتبر نفسها وحيدة في الدنيا.

قال عزوز:

- الزغبية! (البئسية!).

ولم يضف شيئًا، في الوقت الذي عاد فيه الأطفال الأربعة الذين انسحبوا وتفرقوا إلى أماكن مجهولة قبل لحظة. لم يكونوا

يذهبون إلى الجامع. لذلك تفرْعنوا وأطلقوا لأنفسهم العنان وزرعوا الفوضى في المكان. فما إن تسرق دجاجة مثلًا إلا وتلصق التهمة بواحد منهم. فهم علامة الشرور جميعًا. إنهم يتجرأون على كل ما لم يتجرأ عليه أحد. لكنهم عندما يبصرون الدرقاوي ينسحبون على الفور. لأنه إذا رأى أحدهم مقتربًا من الجامع أخذه من أذنه، وأدخله ليكيل له الضربات على قدميه. وحتى أبوه أو أمه لا يستطيعان أن يعارضا في ذلك، لأن في ضربة الفقيه بركة. وعدم تقبّلها معناه عدم تقبّل قضائه سبحانه.

ها هم الآن، نفس الأربعة، رأوا الدرقاوي لكنهم لم يتفرقوا ولم ينسحبوا. بل أصروا على أن يبعثروا التراب في وجوه بعضهم ويتصايحوا. في هذه اللحظة بالذات كان رأس صغير يطلّ من المسجد ولم يرد أن يختفي. لكنه أخيرًا اختفى عندما همّ الدرقاوي بالالتفات. ازداد صياح الأطفال مرتلي القرآن. انتفخ صدر الفقيه، لأن ارتفاع أصواتهم معناه إثبات لسلطته وتفوّقه. أخرج قدمه من جديد ونفض ترابًا وهميًا عنها. ثم أدخل يده من فتحة الجلابة. حكّ مكان العانة. وقال للحسناوي:

- اذهب لتسمع الخبر بنفسك. اسأل المعلم أو اسأل المعطي. العياشي لم يبع شيئًا من أملاكه.

قال عزوز:

- إن القائد سوف يتولى الأمر. وسيحل المشكلة مهما صعبت.

قالت عيوشة:

- سيقوم ولا شك بالإنصاف والاقتصاص منه.

انسحب الدرقاوي ومشى نحو الجامع. خرج رأس صغير وأطل. عندما رآه الدرقاوي هدّد صاحبه من بعيد بيده. لكنه لم يزد أن ينقص من مشيته. كان فخورًا بنفسه إلى حد النرسيسية. يعتقد مع نفسه أنه أعلم من في هذا العالم. وعندما اقترب من الباب ارتفع صراخ الأطفال من جديد. وفي هذا الوقت بالذات وقفت عيوشة. ثم مشت نحو كوخها البارد الذي تخترقه أشعة الشمس. في نفس الوقت فكّر عزوز في الدرقاوي. فكر أيضًا في إبراهيم صاحب الدكان. إنه أيضًا يحفظ القرآن ومنظومة ابن عاشر وأشياء أخرى. إنه يتحدث عن الرؤساء والحكام في العالم كما يتحدث عن سكان المهدية. أما الدرقاوي فلم يكن يعرف من هذه الأشياء حاجة. كان كثير الوضوء وكثير الصلاة والأذان. وأيضًا كثير النهي عن المنكَر. هذا حرام وهذا حلال وهذا مستحب - إلخ.

قال عزوز للحسناوي:

- هل تعتقد أن ما يقوله الفقيه للدرقاوي صحيح؟

ردّ الحسناوي:

- لم لا؟ إنه يعرف ما في قلب المعلم. لا شك أنه قال له.

قال عزوز:

- وإبراهيم؟ لا شك أنه يعرف.

قال الحسناوي:

- لست أعرف من المعلم. فهو خادم العياشي المطيع. هل تريد معرفة إحدى الحقائق؟

هزّ عزوز ثوبه فتسرب هواء خفيف بين فخذيه. انتعش انتعاشة غريبة. قال عزوز:

- ما هي هذه الحقيقة؟ قل.

- المعلم ومقهاه. قصة المعلم ومقهاه.

- أعرف ما تريد قوله.

- ماذا؟

- إن العياشي هو الذي اشترى له المقهى.

- تمامًا.

انتعش عزوز من جديد. شعر أنه سيحقق انتصارًا ثم قال على الفور:

- إنك تخرف وتخرف.

انقبض وجه الحسناوي عندما رأى نفسه منهزمًا. فاجأه عزوز وهو يمسك بعصاه استعدادًا للوقوف:

- إنك تخرف. العياشي جاء عام 45. أما المعلم بيوض فهو هنا منذ العام 38. هل فهمت. إن بيوض يملك المقهى منذ 38.

شعر عزوز بطقطقة عظامه وبثقل في رأسه. ضرب الأرض برأس العصا، كمن يختبر متانة الأرض أو قوة العصا. وقف الحسناوي بدوره ووضع يده اليمنى على القصدير. أصبح مائلًا في وضع متهالك. وقال لعزوز:

- أنا لم أخترع هذا الكلام. هو الذي يقول هذا. اسأل المعلم. إنه يقول بأنه لولا العياشي لأصبح جيفة تعافها الكلاب.

قال عزوز:

- الحقيقة هي ما قلت. اذهب واسأله بنفسك لتتأكد.

ثم مضى عزوز نحو بيت عيوشة. بينما مضى الحسناوي في الاتجاه الآخر، نحو المنحنى، تجاه المقهى. انبثق الأربعة الصغار من جوف الأرض. وقالوا لبعضهم تعالوا نقفز فوق ظهر

عمي عزوز. وقال أحدهم إنه يستطيع أن يدركني رغم ضعفه، وهو يتقن إلقاء العصا.

كان أحد الأربعة الصغار قد فقد أباه في المركب، ولكنه استطاع أن ينسى موت أبيه، وتصور أن ذلك شيء طبيعي، وأنه غير مطالب بالحزن أو البكاء. كان الأطفال الأربعة قد فقدوا صديقًا لهم آخر هو أقلهم خفة وحيلة، لذلك استطاعت أمه أن تنتزعه من بينهم لتدفعه عند بائع الإسفنج كمتعلم. يستيقظ مبكرًا ليوقد النار وليساعده على إلقاء الأعواد تحت المقلاة التي أصبحت كقطعة من الزفت قذفتها البواخر عند شاطئ المهدية. أما هؤلاء الأربعة فكانوا لا يذهبون إلى الجامع ولا يمتهنون أي حرفة لقلة الحرفيين بالمنطقة، فهم ينتظرون – كما انتظر آباؤهم – حتى يبلغوا سن الصيد. لذلك فهم يتدربون منذ الآن على السباحة رغم أن أمهاتهم يزجرنهم مخافة أن يودي بهم البحر في غفلة عنهن. لم يعد هؤلاء الأربعة الصغار يفكرون في صديقهم، ولكنهم نسوه فورًا لأنه لم يكن يشبههم في شيء. فهو فاقد للحيوية والخفة والشيطنة. وكان أول من يفضح السر ويقع في أيدي المجني عليهم. لذلك فتعلم حرفة بالنسبة إليه، أجدى من أي شيء آخر في الدنيا.

عندما كان عزوز يتدحرج وراء عصاه، جرى أحدهم وضرب العصا بقدمه ثم فر مسرعًا. غير أن عزوز لم يكن

عاجزًا إلى هذا الحد، إذ لوّح بعصاه وضربه على قدميه فأسقطه. لكنه لم يستطع اللحاق به. فقد وقف الصبي بخفة وتناول العصا وفرّ بها. جرى نحو الجامع. أطل رأس الدرقاوي بالصدفة، فأطلق الصبي العصا وبال في سرواله. ثم انحرف من الجهة اليسرى، واتجه نحو النباتات الشوكية، حيث كان الآخرون ينتظرونه وهم يلهثون. سكتوا. أخذوا ينصتون هل يتبعهم أحد. لكن لمّا تأكدوا أنه لم يكن هناك أحد على الإطلاق، بدأوا يغادرون النباتات الشوكية القصيرة التي كانت تخفي أجسامهم القصيرة القامة والضئيلة. سارعوا إلى الوسعة أمام الجامع. كان إبراهيم يبدو لهم داخل الدكان ووجهه نحو الرف، حيث اصطفت زجاجات ماء جافيل وباكيتات الملح والصابون الرخيص الأصفر. وقال أحدهم عندما التفت إبراهيم:

- يا الله مرة أخرى! دا إبراهيم.

كان إبراهيم ما يزال وراء الباب، ولكن وجهه الآن جهة الرف. وبدأت الكلمات في صوت واحد صارخ غطى على أصوات الصبية داخل الجامع:

دا إبراهيم

سراق الطحين

فينك فين؟

وجيتي منين؟

رفع إبراهيم يده في الهواء ولوّح بها مفتعلًا الغضب الشديد فتفرقوا من جديد. وقال إبراهيم:

- آولد الحرام. أبوك مات وما تحشم. اذهب وابلك قبل أن تضحك.

لكن من يسمعه؟ من يعرف عما يتحدث؟ كان أبو الصبي حقًا قد مات. لكن حتى أمه تألمت وسكتت وأخفت الألم. عندما لامست جسدها ذات مرة قالت لنفسها إنها ما تزال شابة. وهذا اللحم، تعني جسدها، ما يزال صالحًا للرجال. وجنس الرجال لم ينقطع نهائيًا من الدنيا. في تلك اللحظة، وضعت العطر ونظفت أسنانها بالسواك وخرجت تطالب بالدية وتسأل هل حقًا أن العياشي باع كل أملاكه. وقالت، إن جنس الرجال لم ينقطع ولي طفل وحيد أحميه من كل الشرور حتى ولو صرت من أجله قحـ (...). لكن في الواقع، إن هذه المهنة لم تكن لتفيد هنا. فكل الرجال لهم نساؤهم. وحتى الشبان معدودون على رؤوس الأصابع، ولا يملكون سنتيمًا واحدًا. وعندما فكر إبراهيم في أم هذا الصبي قال:

- اذهب يا ولد القحـ (...). سأهشم رأسك.

ولو سمعته أمه لما افترقت معه حتى يثبت أنها بالفعل

ليمت قحـ(...) ثم رجع إبراهيم إلى الرف، وأخذ يرتب بعض الزجاجات الفارغة قرب زجاجات أخرى مليئة بماء جافيل. ولم تكن عنده زجاجات زيت. فالزيت كان يبيعه من البرميل الذي ألصق به صنبورًا صغيرًا من النحاس. فلا أحد هنا يشتري زجاجة بكاملها من الزيت. وعندما كان منشغلًا بترتيب الزجاجات، جاءه عزوز وطلب أن يناوله المقعد ليجلس عليه. فقال له إبراهيم لقد تكسر، ورفع خشبة الباب أمامه وخرج. جلس قرب عزوز قدام باب الحانوت. وقال لعزوز:

- أولاد الحرام حيروني.

قال عزوز:

- لا عليك. سوف أعرف كيف أربيهم. معهم ولد القحـ(...). هل يعرف أنه يتيم وأن كل يتيم علة؟

لم يتذكر عزوز أنه نشأ أيضًا يتيمًا. لكنه يعرف بالضبط أنه كان علة، أي شريرًا. استمر في كيل الشتائم النابية. ونظف إبراهيم المكان بيديه، ثم نفخ في التراب بكل هواء رئتيه. جلس في مواجهة عزوز. كانت تلك هي عادة إبراهيم، يغادر الدكان المظلم لأنه لا يبيع كثيرًا رغم أنه مول الحانوت الوحيد في المهدية. فالمشتريات قليلة. أحيانًا يضايقه صغير، اختطف ريالًا من زاوية ما في بيتهم، وجاء ليطلب حلوى.

كان إبراهيم يجلس ليلعب الضامة أو يثرثر. ويحاول أن

يتحدث عن أشياء قالها الراديو. مثلًا حاول أن يشرح لعزوز ما قيل أمس في الراديو. كانت خطبة سامية، تحدث فيها الملك. قال إنه يجب ألا نفقر الأغنياء. وقال إبراهيم ذلك لعزوز وشرحه له. لكنه لم يفهمه. وقال عزوز: كل شيء مكتوب، الغنى والفقر.

قال إبراهيم:

- أنت لا تفهم هذه الأشياء. إنك لا تقرأ جريدة ولا تملك حتى راديو.

قال عزوز:

- إن أبي كان صيادًا، وأصبحت من بعده صيادًا. وهذه الأشياء صعبة على أمثالي ولا أعرف فيها شيئًا.

سكت إبراهيم وتضايق. لم يحاول أن يقول إنه غير مقتنع، بل أحنى رأسه ودخل من تحت البوابة. بينما تنحنح عزوز وتمخط في التراب. ثم غطى المخاط بكفه المحروقة. وطلب من إبراهيم بصوت مرتفع أن يخرج لوح الضامة ليلعب طرحًا. فقال إبراهيم نعم. وظلّ يفتش عن شيء تحت برميل كان يجلس عليه. برميل أسود مكتوب عليه بالحروف اللاتينية «ماد إن جرماني». ولم يكن إبراهيم يعرف ما هي الأشياء التي كان يحتوي عليها البرميل. ولكنه اشتراه فارغًا ليستخدمه للجلوس. وأحيانًا كان يضع تحته أشياء ثمينة، كالوثائق والحسابات والفاتورات. ولعله كان يبحث الآن عن فاتورة أو

ورقة حساب. ثم ظهر إبراهيم من جديد خلف الباب القصير الخشبي. ومدّ يده بلوح الضامة، فتلقى عزوز اللوح وصندوق البيادق. ورتبها أسود وأبيض بخفة حتى يخرج إبراهيم. وبـدأ يفكر في اللعبة القادمة للانتصار. وعندما خرج إبـراهيم ظهـر الحسناوي في الوسعة. وسأل إبراهيم بصوت مرتفع هـل رأى العيساوي.

فقال إبراهيم إنه لم يره. وقال أيضًا: يكون في المقهى.

قال الحسناوي:

- جئت منه.

وقال لعزوز أمامه:

- ماذا يريد من العيساوي؟ إنه يكرهه.

وقال عزوز:

إنهم ينتظرون العياشي.

قال إبراهيم:

- أنا أعرف كل شيء. لن يأخذوا حتى خرية.

- خرية تطليها. العب واسكت.

بدآ اللعب. وكان الـحسناوي قـد انحـدر مـن جديـد في المنحنى وسط النباتات الـشوكية. كـان أيـضًا شـبه حـاف. لا ينتعل سوى قطعتين جلديتين استهلكهما طول المشي. كان هو

الآخر صيادًا. لكن لم يكن يشتغل مع العياشي ولا يقوم بالرحلات الكبيرة داخل الأطلسي. كان يكتفي بنشر الشبكة عند الشاطئ فقط بواسطة قارب صغير. لم يكن يخشى غرقًا أو هبوب عاصفة. كان فقيرًا ومتزوجًا، وما يحصل عليه لا يقيم به أوده أو يسد رمقه. شيء قليل، لكنه كاف على الأقل لرد الجوع.

عندما اختفى وراء المسجد واتجه نحو المنحنى، لم يعد عزوز ولا إبراهيم يعيرانه اهتمامًا. انشغلا فقط في التفكير في الضامة. في كيفية أكل الكلاب والسقوط في الواد أو تجاوز الواد للوصول إلى درجة الضامة. كان التنافس الحاد قد بدأ فوق رقعة اللوح. أما الحسناوي فعندما أصبح على مقربة من المقهى لم ير العيساوي. كذلك المعطي لم يكن هناك. كانت الكراسي – التي هي بشكل قطع خشبية مركبة بسرعة وقديمة وعلى استعداد للتكسر لدى أول ضربة خفيفة – واقفة كالجذوع. مشى نحو الكراسي كالحيوان المتوحش المفترس. لم يكن غاضبًا. وأيضًا، لم يكن مسرورًا. أي لم يكن لديه أدنى انفعال. وعندما أصبح في مواجهة الباب مدّ عنقه، بحيث بقي جسده مندفعًا إلى الوراء. القهوة عامرة في الداخل. أشخاص لهم هيئة الصيادين وأشخاص آخرون لهم هيئة المسافرين الذين هم على عجل. وفجأة أطل المعطي من الباب الخلفي، وتبعه العيساوي. خرجا على الفور وسط ازدحام المقهى.

جلس العيساوي على الحافة، لأن الكراسي قليلة. فهم أن الحسناوي يريده في شيء ليس خطيرًا على الإطلاق.

قال المعطي:

- العيساوي. سأعود. لقد نسيت كأس الشاي والسبسي.

ظل العيساوي صامتًا. وحين اقترب منه الحسناوي، قال:

- هل تريد شيئًا الحسناوي؟

- سمعت الخبر؟

- نعم.

- جئت فقط من أجله. هو شائع هناك فوق.

- أعرف ذلك. لكني لا أعتقد فيه.

- لماذا؟

لم يرد العيساوي أن يجيب. ظلّ ينظر بعيدًا، وراء النباتات الخضراء على الدوام. غير أن الحسناوي كرر السؤال:

- لكنك لم تقل لماذا؟

- هكذا فقط.

- اذهب واسأل المعلم. إنه صديقه.

- حتى ولو قال ذلك المعلم.

- اسأل المعطي.

- سألته. قال هو الآخر نفس الشيء.

- بأن العياشي سيعود؟

- نعم.

- ولم لا؟ يجب أن تثق. بعد ذلك سيشغلك وسيشغلنا. وأعتقد أيضًا أن الدية ضرورية.

قال العيساوي:

- أما تزال تعتقد في الدية؟ تفاهة. إن الذي يعتقد في ذلك حمار له أذنان طويلتان.

خرج المعطي. انضم إلى الحسناوي والعيساوي. في يده كأس، فيها قليل من الشاي بالنعنع أسود. كان في اليد الأخرى سبسي، شقفه فارغ وملتصق في صعوبة برأسه. كان الشقف على وشك السقوط والانفصال عن رأس السبسي. ركز الحسناوي عينيه على الشقف وكذلك فعل العيساوي. كان المعطي قد أدرك الأمر فجلس على الكرسي الخشبي الواقف بصعوبة إلى جانب العيساوي. وضع الكأس شبه الفارغة. وقد ظهرت في وسطها أوراق النعنع التي اسودت. مدّ أظافره الوسخة، وألصق من جديد الشقف وثبته في رأس السبسي. جلس الحسناوي هو الآخر قبالتهما على الأرض ووسع رجليه. ثم رفع يده وأخذ يحك رأسه وجبهته. وقال إذ ذاك للمعطي بينما كان منشغلًا بتثبيت الشقف في رأس السبسي:

- المعطي! هل صحيح أن العياشي سيعود؟

- قلته للعيساوي فلم يصدق.

- وأنا أيضًا، إنه لا يريد أن يصدقني.

- لست أدري لماذا؟ المعلم يعرف جيدًا العياشي. والمعلم لا يكذب. وقال أيضًا إنه شافه وقال له إنه لم يبع ولم يشتر. وإن الرجل الذي هناك إنما هو مجرد وكيل.

فكّ العيساوي عن نفسه حصار الصمت:

- لنسلّم أنه سيعود. هل سيدفع الدية لأحد؟

قال المعطي بعد أن رفع رأسه وقد ثبّت الشقف جيدًا:

- لا أعتقد أنه سيدفع شيئًا. ولكن المعلم قال إنه سيقيم زردة للجميع، وسيترحم فيها على الذين ماتوا.

عندما كانوا يتحدثون عن الدية في الخارج، كان الضجيج يأتي من داخل المقهى، ضجيج الذين هم في شكل صيادين وضجيج الذين هم في شكل مسافرين يتناولون الشاي الأخضر أو النبيذ خفية، وراء الباب الخلفي. بينما فوق، بين الأكواخ في مواجهة الجامع، كان قد اجتمع عدد من النساء وأربعة رجال وقفوا يتفرجون على طرح الضامة الدائر بين عزوز وإبراهيم. كانت أم عيساوي من بينهم جميعًا واقفة بصعوبة مثل شجرة عجوز، شجرة لم تنبت جذوعها جيدًا في الأرض، لذلك لاحت كما لو كانت مائلة إلى جهة ما. كانت كفزّاع الطيور. وكان شعرها الذي يظهر من خلال ثقوب

الفوطة المتسخة على رأسها، يشبه نباتات المنطقة في الكثافة والفوضى. إلا أن النباتات كانت خضراء بينما شعرها أبيض وسخ، وأسود وسخ. توقف إبراهيم عن دفع البيادق على اللوح، وهزّ رأسه، فلفت الانتباه من جديد إليه. توجّه بالخصوص إلى أم العيساوي:

- هل تثقين الآن أم لا؟

قال صوت غير واضح:

- إذا عاد العياشي فلا بد أن يدخل السجن.

وقال صوت آخر:

- ومن الذي يدخله؟ أنت أيها المقمل.

قالت أم العيساوي لإبراهيم الشلح:

- الآن لا يهم. يعود أو لا يعود. أنا ولدي مات الله يرحمه. ومات آخرون الله يرحمهم. ولم ننس شيئًا من هذا.

قال إبراهيم:

- تنسين أو لا تنسين. الأمر لم يعد يعني أحدًا.

عاد من جديد إلى لوح الضامة. كان عزوز لا يهتم باللعب إطلاقًا. لأن سمعه كان مشغولًا بالتقاط الحوار الدائر فوق رأسه، رغم أنه ليس له في الأمر ناقة ولا جمل. ثم نفض يده من اللعب. وقال لإبراهيم: غلبت. وتنازل له عن الطرح. توجه مباشرة إلى أم العيساوي. وقف قبالتها منكبًا إلى الأمام.

في حين دخل إبراهيم إلى الحانوت. أخذ يتحاور مع طفل. ثم اختفى داخل الدكان المظلم. عاد بشيء ملفوف في ورقة صحيفة مكتوبة بالحروف اللاتينية.

قال عزوز:

- كنا نعتقد أن أم العيساوي ستموت مباشرة بعد غرق المركب.

قالت أم العيساوي:

- هل تريد أن تتشفى يا عزوز. أتريدني أن أموت؟

قال عزوز:

- حاشا. الموت بيد الله. ولكنك كنت متألمة وهذا ما أعنيه فقط، كنت متألمة إلى حد الموت.

أما تحت في باب المقهى، عندما خرج بعض الذين هم في شكل بحارة أو شكل مسافرين، فكان يدور نفس الحديث عن الموت والدية والعياشي والقائد. قال المعلم بصعوبة فائقة:

- إن العياشي لم يبع ولم يشتر. انتظروا حتى ينادي عليكم القائد غدًا أو بعد غد.

قال العيساوي:

- لماذا ينادي علينا القائد؟

قال المعلم: -

- هو الذي سيتولى القضية والبت فيها.

قال الحسناوي:

- إنه يعطيه الويسكي.

قال المعلم:

- اتق ربك. الويسكي حرام والقائد رجل محترم.

قال الحسناوي:

- هل تعرف الحلال من الحرام؟ إن أسنانك سقطت من جراء النبيذ.

قال المعلم:

- ليس هذا سوقك.

قال الحسناوي:

- أنت مول كل شيء.

قال المعلم:

- أنا مول كل شيء. اشرب البحر. وعندما ينادي عليكم القائد، لن يستطيع أحد منكم أن ينبس بكلمة.

في هذا الوقت بالذات، كان المعطي يختنق بسبب السعال الذي أمسك بخناقه ولم يسلمه حتى احمرّ ثم اصفرّ، ثم احمرّ ثم ازرقّ حتى كادت تزهق روحه.

وقف المعلم بصعوبة. كان شيخًا طاعنًا في السن لا يطيق الشجار والخصومات والتنابذ بالألفاظ. وقف بصعوبة وانسحب داخل القهوة. وعندما استعاد قوّته، قال للحسناوي:

- لماذا تتشاجر من أجل لا شيء؟ الكلام وحده لا ينفع.

قال العيساوي خارجًا عن صمته:

- النساء هن اللائي يتخاصمن.

فتح المطوي وطقطق بأصبعه على شقف السبسي وملأه بالكيف. ثم أخذ يدكّ الكيف بظفره الذي يشبه ظلف الثور. وعندما امتلأ الشقف عن آخره، حكّ عود ثقاب على رجل الطاولة وأشعل السبسي. أخذ يتنشق الكيف بصعوبة، كأنما كان يريد الوصول بسرعة إلى مرحلة اللاوعي حتى لا يستمر في التفكير في مثل هذه الأشياء.

قال للحسناوي:

- خذ ودخن.

لم يرد الحسناوي أن يدخن. لكنه هزّ يده وانسحب، غير أن العيساوي مدّ للمعطي السبسي فتناوله ووضع فمه على فمه. قال الحسناوي بغضب:

- أنت تستمر في التدخين مع المعطي من نفس السبسي ولا تعرف أن رئته مثقوبة. ستصاب بالسل، وهذه الدجاجة العواقة ستقتلك.

قال المعطي:

- إنك لا تعرف ما تقول، الحسناوي. ماذا فعلت لك؟ لست دجاجة عواقة ولا أي شيء. اذهب وتشاجر معه. إنه داخل المقهى. أنا لست سوى متعلم.

لم يسمع الحسناوي هذا الكلام كله، لأنه كان قد انحدر إلى قلب الطريق. ثم ما لبث أن غاب وسط الأشجار القصيرة الكثيفة باتجاه البحر. بينما بقي العيساوي والمعطي يتبادلان السبسي تلو السبسي. ثم خرج المعلم. قال العيساوي:

- أين ذهب ذلك المعتوه؟ إنه يعتقد في نفسه أنه رب الدنيا.

ثم أضاف:

- سيتحقق كلامي. وسترون فيما بعد إذا كنت أكذب. غدًا أو بعد غد ينادي القائد عليكم ومن لم يرد أن يستقيم عرف كيف يقوّمه. من يستطيع أن يقول شيئًا أمام القائد؟

كان العيساوي ساكتًا. وكان مستمرًا في تدخين الكيف. وعندما شعر أن رأسه ثقل عليه، وأن الأشجار بدأت تزداد خضرة والبحر زرقة والسماء انخفاضًا. وقف متهالكًا وصعد إلى المرتفع ليقول كل شيء لأمه. ليقول لها إن القائد سيدفع لهم الدية وإن العياشي لم يختف وإن القائد شخص في المنطقة وإن المعلم يعرف كل شيء وإن المعطي ليس سوى متعلم وإن الحسناوي ذهب جهة البحر وإن السماء ازدادت انخفاضًا والبحر زرقة.. وإنه دخن كثيرًا من الكيف مع المعطي وإن المعطي كان يختنق لأن رئته مثقوبة.

وعندما أبصرهم متجمعين أمام الدكان، سار نحوهم كالخنزير الوحشي. جرّ أمه من شرواطها نحو الكوخ. بدأ

الآخرون ينسحبون من الوسعة الفارغة في انتظار زبون جديد. كانت الزجاجات الفارغة من ماء جافيل مصطفة فوق رأسه قرب باكيتات الصابون. وكان صراخ الأطفال ما يزال ينبعث من الجامع مرددًا آية من القرآن، لأن كل الآيات والسور كانت تقرأ دفعة واحدة. تعسر على إبراهيم أن يسمع ما يقرأون لاختلاط الأصوات وارتفاعها في وقت واحد. ربما كان الأطفال يقرأون ويصيحون فقط للتخلص من عصا الفقيه الدرقاوي. يفتحون أفواههم صارخين مصطنعين الحفظ والقراءة.

عندما أصبح العيساوي وأمه داخل الكوخ المنخفض، بدآ يتحدثان عن عودة العياشي وعن الدية. فرح العيساوي وبكت أمه طويلًا لأنها تذكرت ولدها الغريق.

في الطريق السفلي صباح اليوم التالي، توقفت تحت القهوة شاحنة زيتية اللون، خرج منها شخصان بعد أن سكت المحرك. توجه الشخصان إلى القهوة. دخلا وطلبا من المعلم كأسي شاي. كانا مبعوثين من القائد: الشيخ وأحد مساعدي القائد الذي يقوم بسياقة الشاحنة. نظر الشيخ في وجه المساعد وهو يقول:

- نأخذ بعضهم إذا لم نجدهم جميعًا.

قال المساعد:

- طلب القائد خمسة فقط فلان وعلان وفرتلان.

نظر الشيخ إلى المعلم:

- القائد يطلبهم في قضية المركب الغريق. هم ولا شك يطلبون أموالًا وتعويضًا.

قال المساعد:

- لن يستطيعوا أن يقولوا شيئًا أمام القائد. هل يستطيع أحد أن يفتح فمه أمامه؟

قال المعلم:

- لقد نسوا الحكاية. لكنهم يستبعدون أن يعود العياشي. اعتقدوا أنه فرّ بجلده ولا أدري لماذا؟

وعندما أنهى الشيخ والمساعد كأسيهما غادرا المقهى وسارا في المرتفع إلى فوق. وعندما وقف المساعد أمام دكان إبراهيم تكلف الشيخ بجمع خمسة أشخاص: الحناوي والعيساوي وأمه وحادة وعزوز. وقال عزوز إنه لا ناقة له ولا جمل في القضية. لكن الشيخ نظر في وجهه وقال:

- أنت عجوز شارف. ستذهب معنا نيابة عن الآخرين.

قال عزوز:

- لكن لا ناقة لي ولا جمل. خذوا إبراهيم أو الدرقاوي. إنهما يعرفان كيف يتحدثان مع القائد.

قال الشيخ:

- قلت كلمتي ويجب تنفيذها. تعال معنا. فالشاحنة

قرب المقهى، في الطريق السفلية. ستذهب معنا. إن القائد يريد خمسة. ها أنتم الآن خمسة.

ثم انحدر السبعة في المنحنى. كان عزوز يتلكأ في مشيته، وأحيانًا كانت تغلبه الطريق فيتشبث بعصاه بالأرض. ويتفادى محاولة السقوط على أنفه أو وجهه. وعندما أصبحوا أمام القهوة، لم يكن هناك أحد من الزبائن. حتى المعطي كان مختفيًا داخل القهوة مشغولًا بتنظيف الكؤوس وتنشيفها وترتيبها فوق المرفع الخشبي. وفي الباب الخلفي أيضًا، كان المعلم بيوض يفرغ زجاجة نبيذ في جوفه. وعندما احمرّ وجهه، وشعر بنشوة غير عادية، غادر الباب الخلفي وخرج ليرى السيارة بعد أن سمع محركها وهي تغادر الطريق نحو القيادة. وشعر برغبة في الضحك عندما رأى الخمسة مكومين في الشاحنة داخل شراوطهم. ثم عاد إلى الداخل وقال للمعطي:

- لقد أخذوهم إلى القائد. هل تعرف ماذا سيفعل بهم؟

قال المعطي:

- لا أعرف بالضبط. ولكنه ربما أعطاهم المال من غير شك. سيعوضهم عن موتاهم.

قال المعلم:

- لن يعوضهم عن شيء. أعرف القائد وأعرف العياشي. سيملأ أفواههم ببضعة قروش حتى لا يتكلموا.

- إنهم لا يطلبون أكثر.

- لقد كانوا في السابق يطلبون الكثير. الآن يعرف القائد كيف يهددهم إذا لم يستلينوا.

قال المعطي:

- من أين يأتيهم العياشي بهذا المال كله؟

قال المعلم:

- ماله كثير وخيره وفير. ولكن من غير الممكن أن يدفع كل هذا المال من أجل ثقب في المركب ربما لم يحدثه بيده.

ثم توقف حديثهما لينشغلا بالزبائن القلائل. وعندما عادت سيارة القيادة بعد الظهر تجمّع عدد كبير من سكان المهدية. ثم فتح الحوار:

الفقيه الدرقاوي:

- لماذا لم يدفع القائد لكم شيئًا؟

عزوز: أنا المكلف بهذا الأمر.

كلهم: نعم، تحدث.

عزوز: المركب لم يحطمه العياشي بنفسه. فالله وحده أراد له ذلك.

إبراهيم: هناك قوانين إلهية وهناك قوانين بشرية.

كلهم: لا نفهم هذا الكلام.

قال عزوز لإبراهيم:

- الأفضل أن تغلق فمك، فهم لا يفهمون كلامك. سيقيم العياشي زردة كبرى، تأكلون فيها اللحم وتأخذون لأبنائكم في قب جلاليبكم وعب دفائنكن.

بعضهم: نحن موافقون.

ثم ينصرفون وقد ظلت وسعة قرية المهدية فارغة، خالية إلا من التراب. كانت أصوات الصغار في الجامع قد خفتت. وارتفعت مئذنة المسجد لامعة تحت وطأة شمس غريبة. كان باب دكان إبراهيم مفتوحًا ينتظر الزبائن. لم يكن هناك أحد غيره في مواجهة الساحة.

بعد أن كان الجميع ينتظرون دية أصبحوا ينتظرون زردة يأكلون فيها حتى يشبعوا. ثم يأخذون لأبنائهم اللحم في العب والقب.

كما كان غرق المركب غير متوقع، وغياب وعودة العياشي غير متوقعين، كذلك لم تكن الزردة في حساب أحد، خصوصًا وأن المهدية لم تشهد حفلًا منذ وقت ليس بقصير. لذلك جاءت الفرحة وقد خفت آلام الموت. وبدا لبعضهم أن الفرح ضروري بعد عتمة للنفس استمرت طويلًا.

قالوا:

- سيبدل الله حالًا بحال. لماذا نغرق النفس في هذا الألم وقد وهبنا الله قدرة على تخطي الآلام.

- هذا معقول. إن ما نفعله هو تكليف للنفس، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

- إذا كتب أمرًا فلا مرد له. لا أحد يستطيع الوقوف في وجه قدرته.

- نقيم زردة وننسى ما فات. هل رأيتم ميتًا وقف يومًا من قبره وعادت إليه الحياة؟

- نعم. خربوعة. قبل أربع سنوات كنّا قد دفناها فسمعنا صياحها فهببنا لإنقاذها. وجدناها حية لكنها لا تعي شيئًا.

- نتفق أولًا على مراسيم الحفلة. لتكن الزردة سخونة لا باردة.

- لتكن كما تشاؤون. أنا أقترح عزوز والحسناوي والمعلم بيوض ليتكفلوا بها.

انسحب إبراهيم وخلّفهم متجمعين. جرّ خطواته المتعبة وقد أثقلها نعلان قديمان. وعندما بلغ الدكان، توقف برهة وجيزة، وتنفس هواء آخر غير الهواء الذي يشمه طيلة الأيام الأخيرة. ومع هبوب ريح بحرية خفيفة منعشة، شعر كأنه يسبح في ماء بارد، ذات يوم حار. تمطط في الهواء ثم طوى

قامته وانحنى، فدخل إلى الدكان. وبعد أن ألقى نظرة تائهة وسط الحانوت الذي تلتمع فيه الزجاجات الفارغة، جلس على البرميل، وهو يفكر في لا شيء تقريبًا. وتصور القائد يقول بلهجته القوية: «الآن ستنهون كل شيء. ومن سوّلت له نفسه أن يذهب إلى الرباط من أجل الشكاية فإنه لن يلوم إلا نفسه».

وعندما كان رأسه يموج بتساؤلات، سمع صوتًا من الخلف، صوت ارتطام الزجاجات الفارغة. حرّك رأسه المستدير قليلًا، بحيث ظهرت خطوط عريضة من الألياف واللحم على عنقه. ولمّا لم ير شيئًا يثير هذا الارتطام التفت من جديد ليستأنف تفكيره. كانت الجماعة ما تزال أيديها ترتفع وتنخفض وإبراهيم يرى الأفواه تتكلم بسرعة. لم يكن يسمع شيئًا على الإطلاق. كانت المجموعة تتكوم على نفسها. تنفصل أحيانًا. يذهب بعضها إلى مكان غير محدد ليعود من جديد أو لا يعود. أصاب إبراهيم شعور قوي بالوحدة والانعزال عنهم. لم يكن منهم في يوم من الأيام، انتابه شعور ذلك المسافر الغريب، انزوى وحيدًا. لم يفقد أحدًا في المركب، وهو لا يهمه في قليل أو كثير إقامة زردة أو إقامة مأتم. أدلى هو الآخر بكلمة أو رأي ثم انسحب.

ظلّ إبراهيم ينظر إليهم، بعض الأفكار الطارئة تقفز في رأسه. رأى شخصًا ينفصل عن المجموعة ويتوجه نحوه، شخصًا حافي القدمين. ثم سمع إبراهيم ارتطام الزجاجات

الفارغـة وراءه مـن جديـد. أدار رأسـه. ظهـرت الأليـاف والعضلات على عنقـه. ظـلّ يحـدّق في الزجاجـات الفارغـة، سمع خشخشة خلف باكيتات الصابون. ثم توجّـه إلى المكـان فلمح جـرذًا كبـيرًا. كـان أقـبح شيء عنـد إبـراهيم أن يـرى الجرذان. إنها تفسد كل شيء يقف في طريقها: تثقب الكاغيد، وتتبرز في الدقيق، وتعبث بالجبن - إذا وُجد جـبن - وأحيانًـا أخرى تتبرز في كيس الشاي، فيضطر إبراهيم عنـدما يريـد أن يزن كمية قليلة منه أن ينظفـه أمـام الزبـون، فيرفـضه الزبـون ويهدده بأنه سيشتري «شايه» هذه المرة من السوق يوم الإثنين. وغالبًا ما يفعل ذلك الزبون إذا كان عنيدًا.

وقف إبراهيم بحذر، كقط يحتال على الفأر. ارتمى بسرعة وخفة على باكيت الصابون البـودرة. قفـز الجـرذ إلى الأرض. لكن إبراهيم أدرك جثته الغليظة بنعله. وضع قدمه على رأسه. ترك ذيله يتحرك في الفراغ. تنفس بعمق وانتصار. شعر أيـضًا أن الجرذ له قوة خارقة تحت قدمه. قوة إنـسان أو أكثـر. انتابـه الفزع فضغط بقدمه على رأس الجرذ. رأى الدم يخرج من تحت نعله. سمع على إثر ذلك زعيقًا فزاد من حـدة الـضغط. كـفّ ذيل الجرذ عن التحرك في الفراغ. شعر إبـراهيم أن الجـرذ قـد همد، وأنّ دبيبًا يسري في جـسده، كـما لـو كـان طفـلًا يحتـضر ببطء. ثم انحنى وأمـسك الجـرذ مـن ذيلـه ورفعـه في الهـواء متقززًا. طوّح به خارج الحانوت دون أن يعير اهتمامًا للشخص الواقف في باب الحانوت.

قال الرجل:

- كدت تلقيه في وجهي.

ردَّ إبراهيم وهو لا ينظر إلى وجهه بل إلى الجرذ المُلقى على بُعد أمتار من الباب:

- إن لي عينين في رأسي. هل تخاف من الفئـران؟ أفـترض أنك لست امرأة.

قال الرجل:

- كنت ستلطخ وجهي بالدم.

- وجهك أسود لا تظهر عليه حمرة الدم.

- هل تتهكم عليّ يا وجه الحبس؟

سكت إبراهيم ولم يرد عليـه. فـتح الرجـل فمـه دون أن يبدو عليه أدنى تأثر:

- هل تعتقد؟

لم يعرف ماذا يقول. نظر إبراهيم إلى الجـرذ الـذي تلـوث جسده بالتراب. لم يعد يميز الدم الذي لطّخ جلده قبل لحظـة. ثم قال للرجل:

- إنها تتبرز في الدقيق الذي تأكلون وتبعر في الشاي الذي تشربون.

قال الرجل:

- أنـا لا أشرب شـايك ولا آكـل دقيقـك. هـم الـذين يفكرون في شراء كل أكياسك لإقامة زردة.

- لن يدفعوا شيئًا. العياشي وحده هو الذي سيدفع ثمن الزردة.

- هل تعتقد أن العياشي سيتنازل ويأتي لسيادتكم يشتري منك أكياس الدقيق وباكيتات الملح والشاي؟

- اذهب وقل له بألا يشتري من عندي. لدي جرذان وبراز في الدقيق والشاي.

جاء طفل صغير في يده زجاجة فارغة. تحدث إلى إبراهيم. تناول هذا الأخير الزجاجة الفارغة من الطفل. زجاجة مملوءة في السابق بماء جافيل. خشي إبراهيم أن يكون أثر هذا السائل ما يزال بالزجاجة. قرّبها من أنفه وتشممها. رائحة الزيت طاغية. وضع الزجاجة أمامه. أدخل في فمها دوارًا أسود من كثرة الاستعمال. وقف قبل أن يكيل مقدارًا بسيطًا من الزيت بواسطة مكيال صغير. قال للطفل أن يناوله الثلاثة ريال. فعل الصبي وقال إبراهيم:

- ما عندكم غير هذه الزجاجة؟

قال الصبي:

- صافي.

قال إبراهيم:

- قلْ لأمك أن تطبخ طعامها هذه المرة بماء جافيل.

- نعم.

ثم وضع إبراهيم الزيت في المكيال. صبّه في الدواز. وعلقت في نهاية الزجاجة قطرات من الزيت، مقدار ثلاثة ريالات.

بعد أن انصرف الصبي، غادر إبراهيم الحانوت. كان الرجل قد انصرف. وتوجه إبراهيم نحو مجموعة عادت للساحة. آثار الجرذ ما تزال مرسومة على التراب وقد تبلل بعض التراب من جرّاء الدم. وعندما رآه الحسناوي قال:

- ما رأيك؟ الزردة ستقام غدًا.

- قلّ النعي ولا تقل الزردة.

- إبراهيم أنت متشائم. نسينا الحادث. لماذا تعود من جديد إليه.

قال إبراهيم:

- لن أفعل بعد الآن. كم أنا فضولي!

تدخلت حادة في الحديث بعد أن استرقت السمع إليهما:

- القائد قال كلمته. نغتنم الفرصة. قليل خير من لا شيء.

قال إبراهيم:

- كيف ستتم الزردة إذن؟

قال الحسناوي:

- سيأتون بالشيخات، وستقام زردة للجميع.

قال إبراهيم:

- هذا جيد.

عندما قال ذلك، رأى امرأة تقف أمام الدكان فأسرع إليها ليناولها ما تريد. كانت حسنة زوجة الساحلي التي لا يهمها شيء مما يدور في القرية. زوجها الساحلي لا يهمه شيء من ذلك ولا يجتمع بأحد. فهو ليس صيادًا. كان حطّابًا لحساب غيره. عندما اقترب منها إبراهيم، قالت:

- هل أصبحوا أغنياء؟

قال إبراهيم:

- إن من يطمع في الميت لا يقبض إلا التراب.

قالت حسنة:

- كل شيء بيد الله. قال لي الساحلي أمس إنهم سيقيمون زردة.

قال إبراهيم:

- ذلك شغلهم. لم يمت لك أحد.

قالت حسنة:

- الله يحفظني.

- إذن اسكتي وقولي ماذا تريدين؟

- سكرًا ودقيقا.

ناولها السكر والدقيق فمضت إلى كوخها. نادت عليها أم العيساوي، لكنها لم تسمعها. أو، ربما سمعتها ولم تعرها اهتمامًا. ثم خرج إبراهيم من الحانوت. توجه نحو الحسناوي الذي انفصل عن الجماعة التي قلّ عددها. كان الحسناوي ينظر جهة الجامع الذي توجه نحوه الدرقاوي، بينما علب القصدير الملصقة على المئذنة تلمع بفعل أشعة الشمس.

لما بلغ إبراهيم المكان الذي يقف فيه الحسناوي، قال بصوت خفيض:

- ما الذي توصلتم إليه إذن؟

- لا شيء. نحن ننتظر الأمر من صاحب الأمر.

- العياشي تقصد؟

- نعم.

- ماذا سيفعل لكم العياشي؟

- يقرّر ثمن ما يدفعه لإقامة الحفل.

- اذهبوا عند المعلم بيوض.

- لقد نزل العيساوي إليه. وسيسأله عن العياشي. لأن هذا الأخير لا يفتح قلبه إلا للمعلم، وهو الذي يتصل به.

قال إبراهيم عندما تدخلت أم العيساوي:

- لقد ذهب ابنك في البحر. وها قد نسيته. سترضين ولا شك بالقدر المالي الذي سيقدمه لك العياشي؟

قالت أم العيساوي:

- رحمة الله عليه. كلنا لها. ترك مكانه فارغًا وسيملأه غيره. هذا قضاؤه وأنت ماشي شغلك.

لكن إبراهيم لم يسمع هذه الكلمات. بل انشغل بالاستماع إلى الحسناوي في الوقت الذي تتكلم فيه أم العيساوي. بدا كما لو أنه يستفزهم جميعًا.

انسحبت أم العيساوي عندما لم يهتم بكلامها. استفزها ذلك. جلست على التراب، بعيدًا. ثم ظهر العيساوي في رأس المنحدر، بين النباتات.

قال إبراهيم للحسناوي:

- لا بدّ أن عنده خبرًا جديدًا.

قال الحسناوي:

- عاد بسرعة.

توقفا عن الحديث. بدت شفتا العيساوي متشققتين بشكل دائري. كان فمه يبدو مثل إست أتان، عليه بقايا من الروث.

قال الحسناوي:

- هل وجدت المعلم؟

- نعم. ولقد جاء العياشي أخيرًا.

نظر الثلاثة في وجوه بعضهم باندهاش. وقفت أم

العيساوي، ثم انحنت كما لو أنها تريد أن تلتقط شيئًا من التراب. وقفت من جديد. انضمت إلى الثلاثة الذين انضمّ إليهم آخرون. قال العيساوي:

- لقد تكلف المعلم بيوض بإقامة الزردة. ستقام صدقة للجامع، وستجلب شيخات من بني حسن. كما أن ما نتقاضاه عن الموتى، سيدفعه لنا القائد بنفسه في الشهر القادم.

قال الحسناوي:

- من قال لك هذا الكلام؟

- المعلم بيوض. كان عنده العياشي بنفسه. رأيت آثار عجلات السيارة في التراب أمام المقهي. أراني المعطي ذلك لأني لم أصدق.

قال إبراهيم:

- أعتقد أن المهم هو أن يقدم لكم تعويضًا. أنتم لا تملكون قيراطًا.

انتفخ أنف العيساوي، برز بتضخم على صفحة وجهه. انتابه خاطر تأويل ما يريد إبراهيم قوله. تدخّل الحسناوي:

- هذا شيء كُلف به القائد. من كان يعتقد أن أحدًا سيأخذ تعويضًا بعد التهديدات التي سمعناها. إن التعويض على ما أعتقد الآن مضمون.

قالت أم العيساوي:

- الروح عزيزة عند الله، لا يمكن أن تذهب هباء.

انبسطت أسارير أم العيساوي وقالت:

- كل ما أطلبه، وسأقوله لبيوض، هو أن يجد العياشي لابني عملًا. لكن ليس في البحر.

قال الحسناوي:

- قبر الميت في البر يزار، أما في البحر فلا يمكن. قبر الميت في البر يسقى أما في البحر فلا يمكن.

ادلهم وجه أم العيساوي. قالت بنبرة فيها بكاء:

- إيه يا بني، لا قبر يُسقى ولا قبر يزار.

وقال إبراهيم:

- كُفّي عن البكاء. لقد حم القضاء يا امرأة، ادعي لابنك بالرحمة والمغفرة.

تهالكت أم العيساوي من جديد على الأرض. وسعت قدميها، حتى لعب الثوب القذر بين فخذيها العجوزين المستهلكين. قال العيساوي من خلال أنفه الغليظ:

- قومي واذهبي إلى بيتك.

وقفت أمه بتهالك صعب وعناء شديد. مشت حافية نحو كوخها. مرّت بالقرب من الجامع. لم تر الدرقاوي الواقف بالباب. كان يمدّ قدمه النظيف من كثرة الوضوء عارية فوق البلغة الصفراء الجديدة. لا شك أن تفكيره يحوم حول الزردة التي ستقام للجامع. وعندما رأى أم

العيساوي تختفي، قال في نفسه: «وما من دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها». ظلّ واقفًا معرضًا جسمه النحيل للهواء الخفيف والشمس الجانحة قليلًا في خط مائل. ظلّ في وضعه لحظات قليلة. ثم دخل الجامع ليختفي بصفة نهائية، بين الصبيان.

أصبحت الجماعة قليلة في الوسعة أمام دكان إبراهيم وقد انضم إليها بعض الأطفال الذين شغلوا بالاستماع إلى حديث الكبار، حديث الزردة الذي أصبح متداولًا يُغري كل من يستمع إليه. تحلبت أفواه الذين يشربون، وحلموا بصناديق من الخمر الرخيص، وتفتحت شهية من لم يأكل لحمًا طيلة أشهر، بينما فرح الأطفال ناقصو التغذية، وصوّر لهم خيالهم قصعة من ثريد أو كسكسو فوقه رأس غنم مبخّر بأكمله.

بدا لإبراهيم كأن الأمر لا يعنيه في شيء. لن يبيع ولن يشتري، مهما يكن فمن حظه الطعام اللذيذ. وقال بصوت مسموع للعيساوي:

- ضعوا شروطكم للزردة. اجلبوا طبّاخات. ليكن النعي في مستوى الألم.

قال العيساوي:

- هذا أمرنا. من ضيّع ميتًا أو أكل رزقه فعين الله تشوف. إذا لم يفعل العياشي واجبه فالله سوف يحاسبه.

ثم التفت إبراهيم جهة الحانوت. وقال للعيساوي من جديد:

- اذهب وأكد على المعلم بيوض.

قال العيساوي:

- ذلك ما سأفعل.

وقال الحسناوي:

- ذلك ما سنفعل الآن.

ثم نزل الإثنان إلى المقهى. اختفيا وسط النباتات والحشائش الكثيفة الخضراء. تفرّق الصغار في الساحة. طاردوا بعضهم بعضًا، فأثاروا ضجيجًا وغبارًا في المكان. لم يخفهم في هذه اللحظة أي شخص، لا الدرقاوي ولا إبراهيم ولا حادة ولا أيًا كان. شعروا بواسطة حاسة خاصة، أن الجميع مشرفون على فرح وعيد. لذلك استمروا في المشاغبة والفوضى. وحلّق بهم خيالهم إلى بعيد، فاقترح أحدهم أن يقوموا بدورة جهنمية حول حانوت إبراهيم.. عرجوا على الجامع حيث صياح أطفال آخرين داخله، يتلون القرآن بأصوات ترتفع وتنخفض، لا يستطيع الإنسان أن يُميز بين آية وأخرى. ثم اصطفوا بشكل قطار. قلّد أولهم بفمه صوت المحرك، ومشوا مسرعين منحدرين وسط النباتات الكثيفة الخضراء.

خاتمة

في الساعة الرابعة والنصف بعد منتصف الليل خمد كل شيء في المهدية. انتشرت بعض الأكواخ وهبّت ريح خفيفة باردة نوعًا ما. ارتفعت أيضًا أصوات بعض الحشرات التي لا يعرف أحد اسمها. زقزقت بعض الطيور لتسكت على الفور مستكملة نومها. ظهرت القهوة منعزلة، شبيهة بمعتقل سياسي، أو معتقل حربي لم يعد صالحًا للاستعمال. الباب الخشبي الكبير يبدو مهترئًا، لا يستطيع أن يقف في وجه ضربة قدم ضعيفة.

في هذه الساعة بالذات كان خلف القهوة مخموران ما يزالان يتحدثان. صمتا بصفة نهائية ليتكئ أحدهما على قدم الآخر بانتظار شروق الشمس.

لقد انتهت الزردة الآن. وزّع الكسكسي وطعِم من طعِم. أكل الصغار والكبار. أدخل المهدويون اللحم في بطونهم وأعبابهم وأقبابهم. خبأ بعضهم جزءًا من اللحم لمن لم يستطيعوا الحضور. اجتمع الشبان تلك الليلة في القهوة. وبدلت كؤوس الشاي بكؤوس الخمر. تحوّلت براريد الشاي إلى براريد خمر. وبما أن الليلة ليلة نعي فقد غنت الشيخة أغنيتين ثم مُنعت من الغناء، وقيل إن هذا لا يليق بمناسبة مأتمية. وقيل أيضًا، لقد مرّ وقت ليس بيسير على الغرق فما على الشيخة إلا أن تغني حتى الصباح. لكن الرأي الأول انتصر. بعدها ارتفعت عقيرة بعض حفظة القرآن، وتفننوا في التلاوة والإنشاد. وكذلك قُرئت بعض القصائد في الأمداح النبوية. لكن بعضهم لم يستسغ هذا الجو، فوشوشوا في الآذان وانسحبوا الواحد تلو الآخر. خرجوا جهة القهوة. سكروا وضحكوا وعربدوا. خطرت لبعضهم أفكار جهنمية. اقتُرح جلب المومسات ورفض الاقتراح لأن الظرف لا يلائم. فالمناسبة لا تسمح بذلك على مرأى ومسمع، خصوصًا وأن الأمر يتعلق بموت. وهكذا تمّ الاكتفاء بالشرب في القهوة أو بين الأشجار الكثيفة بعيدًا عن الأنظار. وعندما حلّت الساعة الرابعة والنصف كان كل شيء قد خمد. ليس هناك من صوت أو نأمة سوى بعض الحركات أو الأصوات التي تأتيها حشرة

أو حيوان، أو عواء كلب أو كلبة لم يدركها النـوم هـذه الليلـة لكثرة الغادين والرائحين، وهي ما تزال تترقـب أدنـى حركـة لتنبح مـن جديـد. كـان كـل شيء الآن يغـط في النـوم. لكـن الـرجلين اللـذين اتكـآ عـلى بعـضهما في تعـب قـرب القهـوة استيقظا من جديد، وحاول كل واحد منهما أن يتفحص وجـه الآخر. وقال أحدهما الذي تجشأ رائحة كريهة هـي مـزيج مـن الخمرة الرديئة والكسكسي والقرع والحمص.

- ترى كم سيأخذ كل واحد منهم دية؟

قال الآخر وقد مرّ بظهر كفه على شفتيه:

- لا أدري. ولكن أعتقد أن الأمر سيطويه النسيان.

- هل تعتقد ذلك حقًا؟

- لم لا؟

- إن العياشي رجل كريم. سترى كم سيدفع لهم.

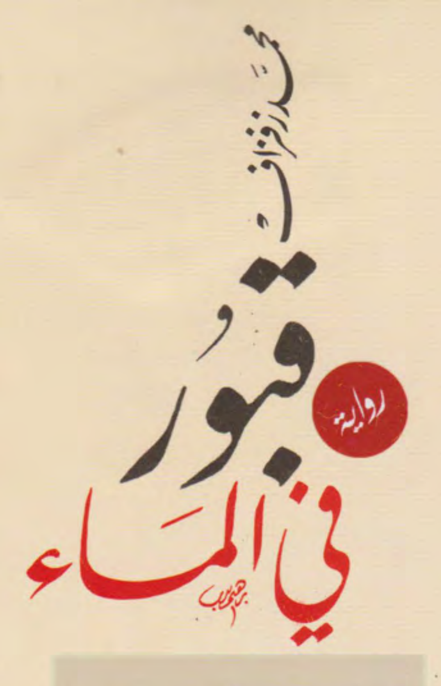
- لن يدفع لهم شيئًا. لقد أكلوا وشربوا وتصالحوا. ثم إن القائد إلى جانبه.

- لقد وعدهم القائد بالدفع.

- لا تثق بذلك الكلام. فهـو يعـرف مـسبقًا أنهـم مجـرد أكباش.

- مهما يكن فنحن لسنا من المهدية. لقد أكلنا وشربنا ولم يغرق لنا مركب.

ثم أرخى أحدهما رأسه إلى الخلف. تمدد فوق النباتات القصيرة المنتشرة في المكان. لم يكن الجو باردًا، وكان الصمت مهيمنًا على المنطقة في تلك اللحظة. وسرعان ما أغمض الرجل عينيه. فعل رفيقه نفس الشيء. وسمع نباح كلب بعيد، وشيء شبيه بمحرك سيارة قديم، لكن هذا الصوت نفسه اختفى. ثم ارتفع شخير عال، وارتفع شخير آخر بالقرب منه.



" ظلّ البحر مستسلماً على حاشية الأرض الجافة . و بقي الرجلان لحظات صامتين لا يفكران . كان هناك جمود باطني . أعقبه شلل في الذهن و الجسد. و لم يكن هناك سوى دخان يرتفع من فمين ذوي شفاه غليظة مشققة و أسنان كأسباخ الحديد لم تنظف من مدة طويلة. لم يكن "علال" يتألم بالقدر الذي كان يتألم به صديقه . ففي القرية بدأت نوبات البكاء تسري و تمتد. النساء يبكين و الأطفال يهزجون بالبكاء في اللعب و الرجال يتألمون في صمت . "





الغلاف حسين جميل